نصيَّة سِيّرة عمارة اليمني الذاتيَّة
في كتابه (النُكت العصريَّة في أخبار الوزراء المصريَّة)

د. عبد الحكيم محمد صالح باقيس

أستاذ الأدب العربي الحديث ونقده المشارك

قسم اللغة العربية وآدابها

كلية الآداب - جامعة عدن

الملخص

يتناول هذا البحث إحدى السير الذاتية المبكرة في تاريخ الأدب العربي القديم، كتبها الشاعر عمارة بن أبي الحسن الحكمي اليمني، المتوفى سنة ٥٦٩ هجرية، وهي بعنوان (النكت العصرية في أخبار الوزراء المصرية) من خلال دراسة نصيَّة لخطاب السيرة الذاتية وآليات تشكله، في مبحثين: الأول بعنوان العتبات النصيَّة وميثاق السيرة الذاتية، متوقفًا عند قراءة العنوان والمقدمة والخاتمة، وباحثًا عمّا تقدمه هذه العتبات على مستوى ميثاق السيرة الذاتية من حضور وغياب، والآخر بعنوان تداخل الخطابات النصيَّة، وتناول الخطابات النصيَّة التي أسهمت في إنتاجية سيرة عمارة اليمني الذاتية، وحدود التداخل النصي ووظائفه.

يهدف البحث إلى تسليط الضوء على هذا النص التراثي الذي لم يتناوله مؤرخو الأدب ونقاده إلا في إشارات موجزة عابرة، ولم يحظ على الرغم من أهميته الكبيرة بأية دراسة أسوة ببعض السير الذاتية العربية التراثية، وهو بذلك يعيد اكتشافه، ويخضعه للمساءلة النصيَّة، لوضعه في إطار النوع الأدبي الذي ينتمي إليه، لافتًا الانتباه إلى أهمية دراسة التراث السردي، وإعادة النظر في كثير من المسلمات حول السيرة الذاتية العربية التراثية.

Autobiography -Text: Umarah al – Yemeni al-nukat al – asriyyah fi akhbar al –wuzara ' al- misryyah

ABSTRACT:

This research discusses one of the early autobiographies of ancient Arabic literature, this autobiography is written by the poet Umarah bin abi al – Hasan al Hakmi al Yemeni (d.569 h).

The autobiography is titled: al-nukat al – asriyyah fi akhbar al – wuzara ' al- misryyah.

The research is based on the text itself, its autobiographical elements and techniques.

Three areas are discussed: First, the text beginnings and the autobiography steps.

This covers the title ,the preface ,and the conclusion.

The research seeks the presence and absence introduced by the beginnings in question. Second ,the intertexuality of discourses.

The research shows the discourses which contribute in producing' Umarah' s autobiography . The levels of interexuality and its functions are explained .

The goal of the research is it throw light on a additional heritage text.

This text has not been carefully studied by Arab critics and historians.

No serious study has been done on it, The research therefore re- discovers the text and questions its totality in order to classify its genre appropriately.

المقدمة:

كتب عمارة بن أبي الحسن الحكمي اليمني، المتوفى سنة ٥٦٩ هجرية، مجموعة من الأعمال ذات السمة الأدبية السيرذاتية، منها: كتابه (تاريخ اليمن) وعلى الرغم من كونه في تاريخ اليمن، فقد تضمن شذرات من سيرته الذاتية تتصل بالمدة التي عاشها في اليمن، وكتابه (النكت العصرية في أخبار الوزراء المصرية) الذي يتناول سيرته الذاتية في شطري حياته في اليمن ومصر، وهو موضوع هذا البحث، وله قصيدة ذات طابع سيرذاتي بعنوان (شكاية المتظلم ونكاية المتألم) تحتل إلى جانب لاميته المشهورة في رثاء الدولة الفاطمية أهمية خاصة في شعره الذاتي.

تكمن أهمية هذه السيرة الذاتية في أسباب عديدة منها ما هو بداخل النص، كاستقلالها النصي في كتاب قائم بذاته، والأسلوب الأدبي الذي صيغت به، وبنيتها النصيَّة التي تستقطب الخطابات الأدبية وغير الأدبية، وسرد الذات وانفعالاتها، وذلك مما يبتغي هذا البحث مقاربته، أمَّا الذي خارج النص فكونها أول سيرة ذاتية تروي جانبًا من حياة شاعر عاش حياة غير عادية، وقد اتهم بالخيانة تارة، وفي معتقده الديني تارة أخرى، وهذه أمور بالغة الحساسية والخطورة، وربما كان للحظة التاريخية التي عاصرها أثر في الحياة غير العادية التي عاشها، وفيما نُسب إليه، لحظة نهاية الخلافة الفاطمية في مصر، والتي تصارع فيها الوزراء الفاطميون على الحكم في مصر إلى أن انتزعه منهم صلاح الدين الأيوبي فأنهى خلافهم وخلافتهم، فكان ممن عارضوه، أو استمروا في ولائهم للفاطميين، لسبب أو لآخر، عمارة اليمني، الذي قيل إنه تآمر لاستعادة الخلافة الفاطمية، فحوكم فأعدم صلبًا، وقيل إنما بسبب بيت شعر دس عليه فنيل من إسلامه، وقيل بسبب تآمره ضد صلاح الدين، وقد أثيرت حول تشيعه روايات مغلوطة تدحضها السيرة الذاتية التي كتبها بخط يده في آخر سني حياته، والتي تؤكد أنه ظل شاعرًا وفقيهًا سنيًا شافعيًا إلى لحظة صلبه، وأنه كان كثير الجهر برأيه السياسي تجاه الأحداث، وهكذا اختلط السياسي والديني والأدبي في رسم نهايته المأساوية.

والذي يعنينا بدرجة رئيسة سيرته الذاتية في (النكت العصرية في أخبار الوزراء المصرية) ومقوماتها النصيَّة، انطلاقًا من الوعي بأهمية الدراسة النصيَّة للسرود التراثية والكشف عن آليات تشكلها واستنطاقها، وبوصف سيرة عمارة اليمني الذاتية سيرة ذاتية أدبية تحتل موقعًا متقدمًا في تاريخ السيرة الذاتية العربية التراثية، إذ تفتتح عنقودًا من السير الذاتية العربية التراثية التي

جاءت من بعدها، وهي سيرة أسامة بن منقذ الذاتية في (الاعتبار)، وسيرة العماد الأصفهاني الذاتية المحمولة في كتابه (البرق الشامي)، والسيرة الذاتية لياقوت الحموي المفقودة من كتابه (إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب)، وسيرة عبد اللطيف البغدادي الذاتية المنقولة عنه في كتاب (عيون الأنباء في طبقات الأطباء) لابن أبي أصيبعة، وسيرة كمال الدين بن العديم الذاتية، المنقولة عنه في كتاب (إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب) لياقوت الحموي، وسيرة أبي شامة المقدسي الذاتية، المحمولة في كتابه (الذيل على الروضتين في أخبار الدولتين)، فكل هؤلاء إمَّا اطلعوا على (النكت العصرية) أو قرؤوا عنها، أو سمعوا بها[1]، ويندرجون في فضاء زماكاني واحد، في البيئة السياسية والفكرية المصرية الشامية في نصفي القرنين السادس والسابع الهجريين، وهذه المدة شهدت توترات وصراعات سياسية، كان لها الأثر البالغ في وعي كتاب السير الذاتية بذواتهم، والرغبة في تخليد ذكراهم، إنه فضاء للسير الذاتية والغيرية[2]، وقد استمر أثر هذه السيرة الذاتية على من جاءوا بعد عمارة بقرون، ممن يمكن أن يشكلوا امتدادًا تاريخيًا لذلك العنقود، فقد ذكرها جلال الدين السيوطي (ت٩١١) في مقدمة سيرته الذاتية (التحدث بنعمة الله) وعدَّها إحدى النماذج المحتذاة في تقليد ترجمة النفس.

ومن اللافت أن هذه السيرة الذاتية على الرغم من أهميتها ظلت تذكر في كتب المشتغلين بأدب السيرة الذاتية وتاريخه بعبارات هامشية موجزة للغاية، ولا يُشار إليها في كثير من الأحيان، ولم تحظ بأية دراسة تعيد اكتشافها وتضعها موضع مساءلة نقدية، قصد استنطاق خطابها السيرذاتي، ووضعها في الموقع الذي يليق بها، أسوة بسير ذاتية تراثية حظيت بالاهتمام، ولذلك يهدف هذا البحث إلى تسليط الضوء على هذه السيرة الذاتية التراثية، ولفت الأنظار إلى أن السيرة الذاتية في تراثنا العربي القديم لم تزل أرضًا بكرًا لم تطأها أقدام الباحثين.

المبحث الأول

العتبات النصيَّة وميثاق السيرة الذاتية:

للعتبات النصية أهمية بالغة في استقطاب القارئ لتلقي النص وإثارة فضوله، وخلق أفق توقعاته، ومن ثم تعديلها، وفق طبيعة الرحلة التي يقطعها القارئ في اجتيازه للنص، بداية من العنوان والمقدمة، ونهاية بالنهاية أو الخاتمة النصية، وهذه العتبات الثلاث هي في (النكت العصرية) فضاء للمساءلة، قصد استنطاق ما رشح عليها من ميثاق السيرة الذاتية.

أولاً: نصيَّة العنوان المخاتل:

غني عن البيان ما للعنوان من أهمية خاصة في تلقي النصوص، بوصفه أولى العتبات التي يلج من على مراقيها القارئ نحو المتن النصي، ويُلتمس من على سطحه ما رشح من معاني النص، وقد أصبح الوعي بأهميته يشكل في المستويين النقدي والإبداعي أحد مظاهر الاحتفاء بالنصوص، لما يؤديه العنوان من وظائف، إلى جوار بقية العتبات النصية الأخرى، تتصل بآليات التلقي، وقد انطلقت كثير من القراءات النقدية في مساءلة النصوص بداية من عتباتها النصيَّة التي يحتل العنوان فيها مكانة خاصة، ذلك أنه يشكل بنية نصيَّة خاصة تفرض وجودها في مواجهة النص الذي يحملها، وعلى الرغم مما تتسم به من استقلال نصي بوصفها "مرسلة كاملة ومستقلة في إنتاجيتها الدلالية"[٣]، فإن الاهتمام بها إنما هو في جوهره اهتمام يتجه إلى النصوص التي تحملها، فلا وجود لها بمعزل عن نصوص حاملة لها أو محمولة عليها، ولا أهمية للعنوان إلا بقدر ما يثيره من تساؤلات تشف عن محتوى النص أو تتصل بدلالته، وإلاَّ غدا العنوان مجرد نص في الخواء، وبناءً على ذلك يمكن البدء بمساءلة نصيَّة السيرة الذاتية في (النكت العصرية في أخبار الوزراء المصرية) بالانطلاق من هذا العنوان المثير الذي ينطوي على قدر كبير من المفارقة، لاسيما عندما يقرأ الآن في فضاء لغوي ثقافي اجتماعي مفارق للفضاء الذي كُتبَ فيه.

العنوان كما يرى التداوليون "ضرورة كتابية، فهو بديل من غياب سياق الموقف بين طرفي الاتصال"[٤]، وقد اتسم النص النثري التراثي بفضل كتابيته بحضور قوي للعنوان، ما يتيح مساءلة خطاب هذه العتبة الكتابية ووظيفتها في النصوص التراثية، وقد حدد المشتغلون بشؤون العتبات النصية مجموعة من الوظائف التي يؤديها العنوان، منها: التعيينية، الإغرائية، والأيديولوجية[٥]،

والذي يعنينا في هذا المجال الوظيفة التعيينية لاتصالها بمجال تجنيس النص، وأثرها في خلق أفق توقع القارئ الذي يقبل إليه، ذلك أن بعض العنوانات تشي بمحتوى النصوص التي تحملها، وتساعد في إبراز هويتها النصيَّة منذ الوهلة الأولى، وأخرى تخاتل القارئ وتمارس خداعًا دلاليًا، كي لايفهم الكتاب من عنوانه!.

في البدء يجب الأخذ بالحسبان عند أية مقارنة بين العنوانات أن تحليل عنوان نص تراثي يعود إلى القرن السادس الهجري يجب أن ينطلق من الفضاء الثقافي والاجتماعي الذي تشكل فيه النص وعنوانه، ومن تقاليد العنونة التراثية التي أرست قوانينها وقتئذ، وبالنظر إلى مستويات حضور العنونة أو غيابها في السير الذاتية العربية التراثية قبل عصر عمارة اليمني، وعند إنعام النظر في المعروف منها إلى نهاية القرن السادس الهجري، سنجد قسمين: المعنونة، وغير المعنونة، وفي القسم الأول قد يأتي ما يؤدي وظيفة العنوان، كأن يكتفى بالقول (ترجمة فلان لنفسه)؛ لأن جل السير الذاتية في هذا القسم مختصرة ومنقولة عن أصحابها في المتون والمؤلفات ذات الطابع الموسوعي من كتب التراجم والطبقات مثل (إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب) المعروف بمعجم الأدباء لياقوت الحموي (ت ٦٢٦)، و(عيون الأنباء في طبقات الأطباء) لابن أبي أصيبعة (ت ٦٦٨)، وقد لا يأتي في بعضها ما يؤدي وظيفة العنوان، لا سيما في السير الذاتية التي ألحقها أصحابها أنفسهم في مؤلفاتهم، أما القسم الآخر فقد أفردها مؤلفوها بكتب قائمة بذاتها، فجاءت تحمل عنوانات منحتها الاستقلال النصي وقوة الإبراز في مقابل تلك السير الذاتية التي توارت في المتون التي تحملها[٦]، وربما سقطت منها.

وعند النظر إلى عناوين السير الذاتية التراثية المعروفة إلى عصر عمارة اليمني، بحثًا عمّا يشير إلى ميثاق السيرة الذاتية، أو الوظيفة التعيينية للنوع الأدبي، يمكن أن يُخلص إلى الآتي:

١- (طوق الحمامة) لابن حزم الأندلسي، (ت ٤٥٦): عنوانها يؤدي وظيفة جمالية بلاغية، ويخلو من الوظيفة التعيينية للجنس الأدبي.
٢- (السيرة المؤيدية) لهبة الله بن موسى الشيرازي، (ت ٤٧٠): على الرغم من الوظيفة التعيينية للعنوان، فهو ليس من وضع مؤلفها، وقد ذكر المحقق أنه كُتبَ على نسختي مخطوطها (سيرة سيدنا المؤيد في الدين شيرازي) ما يعني أن هذا العنوان من وضع النُسَّاخ، وليس من وضع صاحبها، ولعلّ إشكالية السيرة وصاحبها التي تتناول بدايات الدعوة الإسماعيلية، وحرص

الإسماعيليين أنفسهم على عدم تداول هذه السيرة الذاتية أحد أسباب الاختلاف في صحة عنوانها[٧].

٣- (التبيان عن الحادثة الكائنة بدولة بني زيري في غرناطة) لعبدالله بن بلقين، (ت ٤٨٣): وهي منشورة بعنوان (مذكرات الأمير عبدالله) من وضع محققها ليفي بروفنسال Levi Provencal، وعنوانها الأصلي يخلو من الوظيفة التعيينية للجنس الأدبي، ويتناص مع نظام العنونة في المتون التأريخية.

٤- (المنقذ من الضلال والموصول إلى ذي العزة والجلال) لأبي حامد الغزالي، (ت ٥٠٥): يحمل صيغة بلاغية، لكنه يخلو من الوظيفة التعيينية للجنس الأدبي.

٥- (الاعتبار) لأسامة بن منقذ، (ت ٥٨٤): ويحمل صيغة مجازية بلاغية، لا تفصح عن مضمون النص إلا بتأويل العنوان بوصف النص الذي يحمله يقدم خلاصة لحياة يمكن الاعتبار بها، وقد جاء بعد (النكت العصرية) بنحو عشرين عامًا.

من الواضح أن هذه العناوين ـ باستثناء عنوان سيرة الشيرازي الذاتية ـ لا تتضمن أية إشارة إلى ميثاق السيرة الذاتية، بل إن منها ما يوحي بكتابة ذات طابع تأريخي، مثل سيرة الأمير عبدالله الذاتية، ولعله أكثر العناوين قربًا من عنوان سيرة عمارة الذاتية من ناحية غياب الميثاق السير ذاتي، ذلك أن عمارة كتبها قبل أن تأخذ تقاليد عنونة السير الذاتية بالاستقرار النسبي في استعمال كتابها كلمات تشير إلى ميثاق السيرة الذاتية.

يأخذ عنوان سيرة عمارة الذاتية في لعبة المخاتلة بداية بكلمة (النكت) التي جاءت في غرة جملة العنوان، التي توحي بكتاب في العلوم، يقوم على التحليل والتدقيق في المسألة العلمية، فمما جاء في لسان العرب أن"النكت قرعك الأرض بعود أو بإصبع، وفي الحديث: بينا هو ينكت إذ انتبه، أي يُفكر ويحدث نفسه"[٨] صلى الله عليه وسلم، وأيضًا "نكت الأرض بالقضيب: هو أن يؤثر فيها بطرفه، فعل المفكر المهموم"[٩]، يقول الجرجاني صاحب التعريفات: "النكتة هي مسألة لطيفة أخرجت بدقة وإمعان فكر [..] وسميت المسألة الدقيقة نكتة لتأثير الخواطر في استنباطها"[١٠]، إذن النكت بقدر ما هو فعل يحدث أثرًا بسيطًا على السطح المنكوت عليه، هو كذلك علامة على فعل التأمل والتفكير للوصول إلى إنضاج فكرة ما، ويقال: "نكت في العلم، بموافقة فلان، أو مخالفة فلان"[١١]، بمعنى اجتهد في تدقيق مسألة علمية. وبذلك تتسع دلالة النكت من

مجرد الأثر المحدث على الأرض أو السطح الصافي، إلى فعل الإبداع في العلم والكتابة في الموضوعات الحساسة، أليست الكتابة أثر السواد على البياض؟!، وقد ظلت هذه الكلمة تشكل في خطاب العنونة التراثية عنصر إبراز مهم، أشبه بما تؤديه كلمات مثل (قضايا، موضوعات، قراءات، دراسات..) في كثير من أنظمة العنونة المعاصرة، أما كلمة (أخبار) التي تحتل بؤرة العنوان فتنزع العنوان من فضاء السيرة الذاتية إلى فضاء السرد التاريخي بقوة طاغية، فكلمة أخبار في نظام العنونة التراثية تأتي بمعنى (تاريخ). وهكذا يمارس العنوان على المتلقي مخاتلة بوساطة مكوناته كافة، فهو لا يقدم نفسه إلا في قناع ينسجه من تقاليد العنونة التراثية التي تتوسل بالصيغ البلاغية والجمل العنوانية الطويلة المسجوعة التي لا تشف عن مضمون النصوص التي تحملها.

وإذا أعدنا توزيع مركب جملة العنوان وفق نظرية العنوان، وما يمدنا به نظام العنونة التراثية من صيغ، فيمكن تقسيمه إلى عنوان رئيس، وعبارة شارحة، ليصبح مركب (النكت العصرية) بمثابة العنوان الرئيس، وصيغته المختصرة، وذلك ما نجده في معظم الكتب التي تشير إلى عنوان سيرة عمارة الذاتية وفق هذا الاختصار، ولعله في هذه الصيغة سيندرج في إطار العنوانات التي تتخذ صيغة بلاغية، مثل (طوق الحمامة ـ المنقذ من الضلال ـ الاعتبار)، أما بقية مفردات جملة العنوان، وهي (في أخبار الوزراء المصرية) فتؤدي وظيفة العبارة الشارحة للعنوان الرئيس، غير أنها تعمد إلى تعطيل وظيفة التفسير، فإذا كان من وظائف العبارة الشارحة إزالة الغموض الذي يكتنف العنوان الرئيس وتفسيره، والعمل على تحديد الهوية النوعية للنص المعنون في إطار الأنواع الأدبية: (شعر، قصة، رحلة، سيرة، سيرة ذاتية..)، فإنها في هذا العنوان تقلب وظيفتها وتمعن في مخاتلة القارئ، فتقدم النص الذي يحملها بوصفه أحد الكتب التأريخية، وليس بوصفه سيرة ذاتية، وهنا تكمن مخاتلة العنوان الذي يفارق مضمون نصه الذي يروي أخبار عمارة اليمني وسيرته الذاتية، وينجم في نهاية المطاف عن كل هذا الإيحاء المخاتل الذي تمارسه مفردات العنوان وتركيبه تضييق مجال أفق توقع القارئ وحصره في مجرد تلق لكتاب يدور في مجال السرد التأريخي للوقائع أو أخبار الشخصيات التاريخية التي عاصرها عمارة، ولن يتعدل أفق توقع القارئ إلا بدخوله إلى دهاليز النص واجتياز عتبة العنوان المخاتلة.

ثانيًا: خطاب المقدمة وميثاق السيرة الذاتية:

ننطلق في مساءلة نصيَّة سيرة عمارة اليمني الذاتية مجتازين عتبة العنوان المخاتلة إلى عتبة المقدمة، وهي جزء أساسي مندمج في جسد النص، ما يمنحها بوصفها خطابًا ذاتيًا من لدن الكاتب ميزة خاصة في فضاء العتبات النصية، إذ يفضي عمارة اليمني منها مباشرة إلى قارئه، حين يشرح نصه ويعلق عليه، فيتخذ خطابه في هذا الإفضاء بعدًا ميتانصيًا، يسهم في توجيه القارئ إلى تلقي النص، وربما إثارة شغفه وفضوله إلى ما هو أبعد، وذلك في إشراكه في تأويله وإعادة تجنيسه، وقد ذهب بعض الكتاب إلى اعتبار المقدمة مما يمنح النص شرعية وجوده، يتساءل ماريفو Marevo: "أيعتبر الكتاب المطبوع والمجموع دون مقدمة كتابًا؟ لا، إنه لا يستحق - دون شك - هذا الاسم"[١٢]، وغني عن البيان ما لخطاب المقدمة في النص التراثي من أهمية بالغة تجعله يعدل النصوص التي يقدمها، وربما يفوقها أهمية في بعض الأحيان.

منذ البداية يحضر سؤال حدّ المقدمة، من أين تبدأ، ومتى تنتهي؟، ذلك أن السرد في (النكت العصرية) ينهمر في غياب لأية مؤشرات نصيَّة مباشرة تفصل المقدمة عن بقية المتن النصي، ما يستدعي من الناحية الإجرائية تمييزها وفك ارتباطها في فضاء الكتابة.

تقترح أندريا دي لنجو Andrea Del Lungo إجراءات محددة لتمييز المقدمة عن بقية أجزاء النص، منها وجود إشارات مباشرة من لدن الكاتب، أو تقنية طباعية تفصل المقدمة عن غيرها، أو مؤشرات لغوية تشير إلى انغلاق السرد ثم استئنافه، أو التغير في أنماط السرد وأسلوبه، أو التحول في زمن السرد[١٣]، وإذا نظرنا في (النكت العصرية) فإن أول ما يلحظ أن عمارة اليمني لم يضع حدًا واضحًا يعلن فيه انتهاء مقدمته وبداية السيرة الذاتية، لكن وجود مؤشرات نصيَّة غير مباشرة يسهل الاستعانة بها تسهم في تحديد سعة المقدمة في صفحتين ونصف، إذ تتميز بأنها تشكل وحدة نصية أولى قائمة بذاتها، يتوجه فيها عمارة بخطابه إلى القارئ مباشرة، بلغة في غاية الإيجاز والدلالة، وقد اتبع في أثناء ذلك أسلوب المقدمة التراثية، كالافتتاح بصيغ بلاغية بحمد الله والصلاة على النبي، وذكر عنوان الكتاب، وبيان منهجه في التأليف وتناول أخباره وأخبار الآخرين القائم على استدعاء ما علق بالذاكرة، يقول: "لم أقصد به شيئًا مخصوصًا، ولا فنًا منصوصًا، بل ذكرت فيه نبذًا من الأخبار مختلفة المقاصد، متباينة المراصد، ولم أورد فيه إلا ما أملاه الخاطر، أو رواه من أقيمه في الصدق مقام الناظر"[١٤]، وتتميز المقدمة بالإيجاز البلاغي،

وخاصية لغوية وأسلوبية، في التزام الجمل الثنائية المسجوعة على امتدادها كافة، ليبدأ السرد السيرذاتي بعد ذلك بالحديث عن نسبه ومختلف أحداث حياته منذ قوله: "فأما جرثومة النسب فقحطان ثم الحكم بن سعد العشيرة المذحجي.." (ص٧)، إذن وفق هذه المؤشرات النصيَّة يمكن تحديد المدى النصي للمقدمة، وهو مدى نصي قصير بالقياس على مقدمات الكتب التراثية، لكنها على الرغم من هذه الوجازة جاءت مكتنزة بالوظائف الدلالات النصيَّة.

إن تحليل أية مقدمة لابد من أن يتجه إلى الوظائف التي تؤديها، بوصفها عتبة مهمة تسهم في توجيه متلقي النص وتحفيزه للقراءة بما تتضمنه معلومات، ووظيفتها في (النكت العصرية) تندرج في نوعين من الوظائف:

الأولى: الوظائف الأساسية التي يتطلبها الإطار التواصلي بين الكاتب والقارئ، لحظة الانفجار النصي من السكوت إلى العلن، ولا تخرج هذه الوظائف عن طلب ضمان قراءة جيدة للكتاب من جهة القارئ، وقد استعان عمارة اليمني في مفاوضته القارئ واستقطابه بشيء من الإطراء على الذات، في استعراض مهارته البلاغية في إنجاز نصه الذي دفع به بين يدي القارئ، وفي مفارقة واضحة لم تخل من الدلالة العميقة على مكانته الأدبية، بين استخدامه للسجع في المقدمة كلها، بوصفه أحد الأساليب البلاغية، واستخدام الكتاب المتكلف له، إذ يقول: "وتجنبت سجع المتكلفين، وفارقة ذلة المتخلفين، وأطلقت أعنة الكلام، وسامحت أسنة الأقلام، فلا في سهل الهزالة أنا حاطب، ولا في حزن الجزالة أنا خاطب" (ص٦)، لكنه إذ يشعر بهذا الزهو ينتابه شعور آخر قلق مما قد يصيب حديثه عن الآخرين من نقص أو تقصير، على الرغم من إعلانه تحري الصدق والموضوعية في مرويِّه، ما دفعه إلى تقديم اعتذار استباقي، شأنه في ذلك شأن الكتاب الذين يضطرون أمام القارئ إلى إبداء شيء من التواضع والتحرر من الزهو بالذات، يقول: "وإن تخلل ذلك شيء ليس منه فبالعرض لا بالغرض، والحديث كما قيل شجون، والجد قد يخلط بالمجون" (ص٦).

أما الوظيفة الأخرى، وهي محل عنايتنا في هذا البحث، فتتصل بالناحية التجنيسية للنوع السردي الذي يحاول خطاب المقدمة مقاربتها، وهذا يستدعي بدايةً التوقف عند مصطلح (مجموع) الذي أطلقه عمارة اليمني على سيرته الذاتية منذ البداية، ومن الطبيعي ألا يرد مصطلح (سيرة ذاتية) لأنه من المصطلحات الحديثة، كما أن مصطلح (ترجمة النفس) التراثي الذي استخدم للدلالة على فعل الكتابة عن الذات، وسرد جوانب من الحياة التي يرويها المرء بنفسه لمّا يغادر دهاليز المتون التراثية ليعلو النصوص المستقلة الناهضة بفعل

الكتابة عن الذات، وظل استخدامه حتى القرن السادس الهجري في دلالته التي لا تتعدى النبذة المختصرة اليسيرة التعريفية بالميلاد والنسب والتنشئة والمنجز العلمي لأحد الأعلام في أحد الحقول العلمية التراثية، وهو لصيق في ذلك بمعيارية ترجمة حيوات الآخرين في كتب الطبقات والتراجم، ولذلك أطلق عمارة على كتابه اسم (مجموع) الذي تكرر في المقدمة مرتين، الأولى في عبارة مخاتلة عابرة للحدود التجنيس: "هذا مجموع لم أقصد به شيئًا مخصوصًا ولا فنًا منصوصًا" (ص٥)، والأخرى في عبارة تبريرية لسرد الذات: "وعسى أن يقول من وقع في يده هذا المجموع خبرتنا عن غيرك فمن تكون" (ص٧)، وثالثة في المتن النصي في عبارة إحالية: "وربما من شرحت ذلك في مواضعه من هذا المجموع" (ص٨١)، أما بقية المصطلحات التراثية المتجاورة، والتي تؤدي دلالة السيرة الذاتية، مثل: (ترجمة النفس، التحدث بنعمة الله، الأحوال، البرنامج، الفهرسة، التعريف..) فلم تعرف كاصطلاح لهذه الممارسة النصيَّة إلا بعد عصر عمارة، منذ القرن السابع الهجري وما بعده، وثم أخذت في الانتشار مع التوسع في كتابة السير الذاتية التراثية.

وفي إطار الوظائف التي ينهض بها خطاب المقدمة يأتي البحث عن ميثاق السيرة الذاتية، وأمام حجب العنوان هذا الميثاق تحفل المقدمة به على نحو واضح، ما يسكن النص في فضاء السير الذاتية، وذلك الذي سنتوقف عنده، في ضوء الميثاق الذي سكه فيليب لوجون Ph .Lejeune، وقد آثرنا الإشارة إلى ميثاق السيرة الذاتية في هذا الموضع من البحث، لاعتقادنا أنه الموضع المناسب لقياس نصيَّة (النكت العصرية)، ولأن المقدمات في السير الذاتية كافة موضع مساءلة مستمرة عن مدى حضور ميثاق السيرة الذاتية أكثر من العنوانات التي قد لا تتضمن هذا الميثاق، ذلك أن خطاب المقدمة يشكل البؤرة التي ينطلق منها السرد ويتناسل على امتداد الفضاء النصي للكتابة، ولأنه لحظة الإعلان الواضحة عن المشروع الذي يحاول الكاتب أن ينجزه.

عرَّف فيليب لوجون السيرة الذاتية بأنها "حكي استعادي نثري يقوم به شخص واقعي عن وجوده الخاص، وذلك عندما يركز على حياته الفردية وعلى تاريخ شخصيته، بصفة خاصة"[١٥]. وبالاستناد إلى معطيات هذا التعريف، وضع لوجون الميثاق الذي ينبغي توفره في السيرة الذاتية، وحدده في أربعة عناصر، بخلاف الأنواع القريبة منها، (المذكرات، السيرة، الرواية الشخصية، قصيدة السيرة الذاتية، اليوميات، الرسم الذاتي أو المقالة الذاتية)[١٦]، والتي

تتفاوت درجات حضور الميثاق فيها وفق شروط كل نوع منها، والعناصر الأربعة هي[١٧]:

١- شكل اللغة: أن تكون سردية نثرية.
٢- وضعية المؤلف: أن يتطابق المؤلف الواقعي مع السارد.
٣- وضعية السارد: أن يتطابق السارد مع الشخصية في النص.
٤- الموضوع: أن يروي الحياة الفردية والتاريخ الشخصي[١٨].

قبل تطبيق عناصر هذا الميثاق على (النكت العصرية) تجدر الإشارة إلى أمرين: الأول: أن تعريف لوجون، والميثاق الذي يقترحه، وتصورات السيرة الذاتية في الخطاب النقدي كافة، قد انطلقت من فضاءات تاريخية وثقافية مفارقة للفضاءات التاريخية والثقافية التي تشكلت فيها السير الذاتية العربية التراثية، ومن بينها سيرة عمارة اليمني الذاتية المكتوبة في النصف الثاني من ستينيات القرن السادس الهجري، (القرن الثاني عشر الميلادي) وهنا لابد من الإشارة إلى خصوصيتها عند مقاربة موضوع الميثاق السيرذاتي، والأمر الآخر: أن هذا التعريف الذي صاغه فيليب لوجون منذ منتصف السبعينيات من القرن العشرين الميلادي، يُعدُّ أكثر التعريفات شهرة وكفاءة إجرائية في مقاربة قضايا النصيَّة في السيرة الذاتية، فيما اصطلح عليه بالعقد أو ميثاق السيرة الذاتية، على الرغم من النقد الموجه له.

١- شكل اللغة:

تتجاوز اللغة في (النكت العصرية) حدَّ النثرية، فتمزج في إيقاع سردي بين النثري والشعري، وتحفل على نحو كبير بحضور النص الشعري بوصفه أحد أشكال سرد الذات، ما يثير التساؤل عن مدى تداخل الشعري بالسردي، على نحو ما سنقف عليه في المبحث الثاني، وهنا تجدر الإشارة إلى تعدد المستويات اللغوية التي صيغت فيها هذه السيرة، بالإضافة إلى ظاهرتي القصص والتناص اللتين تكتنفان هذه السيرة من أولها لآخرها، ما يمنحها صفة الأدبية، ولا غرابة في ذلك فهي تتناول حياة شاعر صاغها بقلمه.

٢- الضمير السردي ومسألة التطابق:

منذ البداية يحضر بقوة الضمير النحوي السردي (أنا) ضمير المتكلم الناهض بمهمة السرد، والذي يحيل إلى المؤلف الواقعي عمارة بن أبي الحسن الحكمي اليمني إحالة مباشرة لا لبس فيها ولا في نسبة الكتاب إليه، وظل هذا الضمير السردي يتمدد في النص موسعًا درجة التطابق التام بينه وبين

الشخصية الرئيسة المروي عنها، بصفاتها المتعددة كافة: (الطفل، الشاب، الفقيه، الشاعر، والسياسي) وهي جميعها صفات المؤلف الواقعي، والجدول الآتي يعيد توزيع ميثاق السيرة الذاتية من ناحية التطابق:

الضمير السردي	الشخصية الواقعية	الشخصية الرئيسة	درجة التطابق
(أنا) ضمير المتكلم	المؤلف عمارة اليمني	عمارة اليمني: الطفل، الشاب، الفقيه، الشاعر، والسياسي	تطابق تام

وتتصل بمسألة التطابق واقعية المروي وإحالته المباشرة إلى مرجعية خارج النص، وبوصف السيرة الذاتية خطاب في الحقيقة بدرجة أولى، يأتي تأكيد عنصر الصدق في إطار الميثاق التعاقدي الذي ينبغي أن ينشأ بين النص والقارئ منذ البداية، وهنا لا يمكن تجاوز دلالة صيغة الابتداء في هذا الشأن، والتي أكد عمارة فيها عنصر الصدق، وذلك في صيغة الحمد التي استهل بها الكلام، وهي بقدر ما تشير إلى بلاغة الصوغ والابتداع لدى المؤلفين القدامى، تشير إلى معان يتم إضمارها منذ مفتتح الخطاب في تخير كلماتها، فقوله: "الحمد لله الذي فضل الإنسان بعقله ونطقه، ووعد الصادق أن يسأله عن صدقه" (ص٥)، ليست مجرد تقليد تراثي في أول الكلام، وإنما تنطوي على تأكيد عنصر الصدق فيما يلي من مروي السيرة الذاتية.

٣- الحكي الاستعادي:

لم يعرف تاريخ كتابة (النكت العصرية) بدقة لغياب الخاتمة التي يمكن أن يذكر فيها الإعلان عن تاريخ الانتهاء من الكتابة شأن كثير من خواتيم النصوص التراثية، لكن من المرجح أن عمارة اليمني كتبها في عتبات العقد السادس من حياته، وقبل إعدامه بنحو ثلاثة أعوام على أكثر تقدير، وذلك بحسب ما تمدنا به وقائعها المروية، وهو سن معياري لكتابة السيرة الذاتية وفق المتعارف عليه، وهناك دوافع مهمة تكمن خلف تأليفها في هذه المدة من حياته، منها أنه ربما شعر بدنو نهايته بسبب معارضته للدولة الجديدة، الحياة المؤلمة التي عاشها في سنواته الأخيرة وشعوره بالغربة والقلق، الحنين إلى الماضي

واستعادة الذكريات، تبرير علاقته بوزراء الفاطميين، إبراز المكانة الأدبية والسياسية، إنجاز نص عن أخباره في مصر يضاهي ما تضمنه كتابه الأول (تاريخ اليمن) من شذرات سيرته الذاتية في اليمن الذي كتبه في ٥٦٤ هجرية، وهكذا جاءت كتابة (النكت العصرية) استجابة لمجموعة من الدوافع.

يقول ج.هيو. سلفرمان J.Hugh Silverman :"عندما يكتب المرء حياته يكتب ما يتذكره منها"[١٩] لكنه لا يكتب كل ما يتذكره، وإنما ما يريدنا أن نعلمه من هذه الحياة، إذ تعمد الذاكرة على الحجب والانتقاء، ذلك أن كُتَّاب السير الذاتية يتبارون في إدخالنا معهم في لعبة الإفشاء والإخفاء غير المعلنة، ولذلك يحاول عمارة اليمني أن يخبرنا في مقدمته أن ما سيرويه ما هو إلاّ مما "أملاه الخاطر" في إشارة نصيَّة واضحة إلى فعل التذكر ومشقته، وإلى طبيعة السرد الاستعادي، وأن ما يلي من النص يقوم على مجاهدة الذاكرة في استعادة سرد الماضي وانتزاع ما علق منه بالذاكرة من فضاء الزمن المفقود، إلى فضاء النص المتشكل لحظة الكتابة، لأنه، كما يقول: "مادام الليل والنهار دائمين، والشمس والقمر دائبين، فالعجائب المتولدة صيود، والتواريخ لها قيود، وما يخلو الإنسان من بداية مهده، إلى غاية لحده، من الوقوع أما في أحسن أحوال، أو قبح أهوال، وإذا لم تؤرخ النوازل عفى النسيان آثارها، وطمس الإهمال أنوارها" (ص٦)، وهنا يبدو عمارة على وعي بوظيفة السرد الاستعادي لحسن الأحوال، وقبح الأهوال التي مرّ بها، لكنه ليس وعيًا تامًا بكتابة السيرة الذاتية ومواثيقها وفق اشتراطاتها الحديثة، كالبوح والاعتراف، وإنما وعي ينبغي أن يدرك في ظل الفضاء الثقافي الاجتماعي، الذي يتيح فهمًا منصفًا لنصوص السير الذاتية العربية التراثية، وظروف تشكلها التاريخية، حيث كان الوعي بسرد الذات في إطار خاص من الوعي بسرد الآخر في الكتابات التأريخية، فكانت السير الذاتية إما أجنة في بطون كتب الطبقات والتراجم، وإما على شكل شذرات متشظية عندما يروي بعض الكتاب المؤرخين الشخصيات والأحداث التي عاصروها، وكان لهم أثر مباشر فيها، وبهذا الوعي تأتي سيرة عمارة اليمني الذاتية، لتروي جوانب مهمة من حياته الشخصية في أثناء سرده لأخبار الوزراء المصريين، التي لم تكن غير أخباره معهم، يقول شوقي ضيف: "هو ليس طائفة من الأخبار عن هؤلاء الوزراء، وإنما هو في أخباره هو نفسه، وبعبارة أدق ترجمة ذاتية

لـه"[٢٠] فقد ذكر فيها صحبته لهم وأشعاره فيهم، ومشاركتهم بعض تفاصيل حياتهم، وكرمهم البالغ في تقديره، واتبع في أثناء ذلك منهجًا يقوم على ذكر الوزراء والأمراء بوصفهم عناوين لأخباره المتصلة بهم، وحين لا يكون لأحد منهم أثر مهم في سيرته الذاتية يعلن عن ذلك صراحة، يقول: "ولم يكن لسليمان بن شاور إليَّ من الإحسان ولا التقصير ما يوجب ذكره" (ص١٣٨)، إذن لا مكان في السيرة الذاتية إلا من له ذلك الأثر المباشر في حياته، وهنا يفهم الآخر بوصفه مرآة أو قناعًا لتبرير سرد الذات، وتفهم (النكت العصرية) بوصفها سيرة ذاتية جزئية تركز على استعادة جوانب محددة من الحياة، شأن جلّ السير الذاتية التراثية التي يمكن أن نسمها ـ من هذه الناحية ـ بالسير الذاتية الجزئية، والتي تركز على وضع الشخصية الاعتبارية في تنشئتها ومحيطها وعلاقاتها المباشرة بالآخرين.

يختتم عمارة اليمني خطابه في المقدمة بهذه الفقرة البالغة الدلالة:

"وعسى أن يقول من وقع في يده هذا المجموع خبرتنا عن غيرك فمن تكون، وإلى أي عش ترجع من الوكون، وأنا أقتصر وأختصر وأذكر من مولدي ووطني ونسبي طرفًا أبني عليه أول حالي، وآخر مآلي، فقد قيل الإنسان من حيث يولد يوجد، ومن حيث ينبت يثبت، ولم تزل العرب تعد من أفضل أحسابها، ذكرها لأنسابها، ومن عرف الشرف لقديمه، لم ينكر صحة أديمه" (ص٧).

بالقدر الذي تؤكد فيه هذه الفقرة ميثاق السيرة الذاتية بقوة في النص، وتحسم قضية تجنيس (النكت العصرية) بوصفها سيرة ذاتية، فإنها تثير مسألة الطلبية في السرد التراثي، والوعي بحضور متلق خارجي مباشر أو مفترض للخطاب في معظم السرود العربية القديمة، يطالب بالسرد الذي يثير فضوله، فيسأل عنه، فيصبح هذا الطلب "تحفيزًا لعملية التأليف السردي في حد ذاتها، وهو موجه أساسًا إلى المؤلف الأول للنص، يثيره كي يباشر ويشكل نصه السردي"[٢١]، وتكفي الإشارة إلى السرد الطلبي في السير الذاتية العربية التراثية أن ابن حزم الأندلسي كتب (طوق الحمامة) استجابة لطلب صديق يسأله في صفة الحب وأسبابه وأعراضه من واقع تجربة ابن حزم نفسه[٢٢]، وكتب أبو

حامد الغزالي (المنقذ من الضلال) بناءً على طلب "أخ له في الدين" يسأله أن يبث إليه غاية العلوم وأسرارها من خلال ما قاساه الغزالي في استخلاص الحق بين اضطراب الفرق والطرق[٢٣]، والأمثلة كثيرة، بل إن تأليف كتاب عمارة الأول (تاريخ اليمن) كان بطلب من القاضي الفاضل، وبهذا الحضور المفترض للمتلقي الخارجي الذي يسأل عمارة الحديث عن نفسه تتحول السيرة الذاتية في (النكت العصرية) إلى إجابة عن سؤال "من تكون؟" ما يخلق مسوغًا للنهوض بالحديث عن الذات الذي يتهم أصحابه بالنرجسية والزهو، إلا ما تشكل منه وفق ما اشترطته التقاليد التراثية للحديث عن الذات، ووفق المبدأ القرآني "وأما بنعمة ربك فحدث" ليصبح فعل (التحدث بنعمة الله) أو (ذكر ألطاف الله) الذي اتخذ منه عمارة عنوان فصل قائم بذاته، فعلًا مشروطًا وأحد مبررات تشكل السيرة الذاتية.

ثالثًا: غياب الخاتمة النصيَّة:

يقول ابن رشيق القيرواني عن الانتهاء في القصيدة إنه "آخر ما يبقى منها في الأسماع، وسبيله أن يكون مُحْكمًا، لا تُمكن الزيادة عليه، ولا يأتي بعده أحسن منه، وإذا كان أول الشعر مفتاحًا له، وَجَب أن يكون آخره قُفلاً عليه"[٢٤]، ومثلما للابتداء وظائفه في تشكيل النص وخلق أفق توقع ما لدى القارئ، فإن للانتهاء وظائفه في الإعلان عن الوصول إلى لحظة الارتواء ومغادرة الفضاء النصي وانتهاء السرد، لينفتح النص على القراءة التي تمنحه حياة متجددة، إنها عتبة الخروج من النص والعودة إلى عالم الواقع بانطباعات متعددة بتعدد مستويات القراءة، لحظة خروج القارئ بتعديل حتمي لأفق توقعاته من النص.

في (النكت العصرية) تغيب الخاتمة النصيَّة غيابًا تامًا، وتغيب معها تلك الإشارات إلى الهوية النصيَّة وظروف الكتابة والفراغ منها، مما ألفناه في خطاب الخواتيم في النصوص التراثية، إذ يتوقف السرد فجأة، بدون أية مؤشرات نصيَّة تدل على بلوغ السرد الاستعادي منتهاه، وترد في آخرها عبارة من قبل الناسخ تقول: "آخر الموجود من هذا الكتاب في عدة نُسخ والحمدلله وحده وصلواته على سيدنا محمد نبيه وآله" (ص١٥٤)، تشير هذه العبارة إلى شعور الناسخ بأن النص وصل إلى نهاية مبتورة، على الرغم من تحري الناسخ

عدة نسخ من مخطوط الكتاب، وهي نهاية غير مقنعة قياسًا بتقاليد الانتهاء المعروفة في المؤلفات التراثية كافة، وبالنظر إلى خواتيم السير الذاتية العربية التراثية نفسها، والتي تشكلت في المدى الزمني القريب من عصر عمارة، فإن جميعها لم يخل من وجود الخاتمة التي تعلن انتهاء السرد، وتعيد تأكيد ميثاق السيرة الذاتية لحظة الخروج، فهل جاءت (النكت العصرية) سيرة ذاتية غير مكتملة؟، جملة تساؤلات يثيرها ذلك النص الغائب!.

لقد أخبرنا عمارة اليمني في المقدمة أنه سيذكر "حسن الأحوال وقبح الأهوال" التي مرّ بها، والناظر إلى المروي من سيرته الذاتية لن يجد الإشارة إلى "قبح الأهوال" في آخر حياته، فهل هي المسكوت عنه في سيرته الذاتية، أم أن عمارة شُغل في سني حياته الأخيرة عن استكمال نصه بسبب المحن والحياة القلقلة المضطربة، ذلك أن المصادر التاريخية، وشعر عمارة نفسه في هذه المدة من حياته تشيران إلى أنه عاش ضنك العيش بسبب منع صلاح الدين عنه الرواتب والصلات التي أجراها له الفاطميون، أم أن الخاتمة قد أسقطت عن النص من قبل ناسخيه الأوائل لأسباب سياسية أو خشية من السلطان، سيما أن مروي سيرته في الكتابات المعاصرة له، مثل العماد الأصفهاني، وأبي شامة المقدسي، يشوبها الحذر والارتباك، واكتفي منها بسرد قصة إعدامه.

كل ذلك يفتح الخاتمة الغائبة على تأويل المسكوت عنه، غير أن بلاغة النص تمضي في تخيرها نهاية لم تخل من المفارقة، بعيدًا عن المؤلف الذي سطر النص، ببيت شعري هو آخر المسطور من مقطوعة شعرية لعمارة نفسه، يمدح فيها أحد الأمراء الفاطميين لحظة وداعه، يرد في نهاية (النكت العصرية)، ولا شيء يأتي بعده، يقول:

ستُفقد منك أنفسنا حياة وما فقد الحياة بمستطاع

إن تكرار مفردتي الفقد والحياة في هذا البيت لم يخل من الدلالات الكامنة، وكأن الشعر ينعي صاحبه، فتثير النهايتان: النص والحياة، مجموعة من التساؤلات، بما هو ليس آخر ما يبقى في الأسماع.

المبحث الثاني

تداخل الخطابات النصيَّة:

تشير صفة (مجموع) التي أطلقها عمارة على كتابه في عدة مواضع إلى سمة التهجين النصي، وتفتح بذلك (النكت العصرية) على التناصيَّة التي هي أحد أهم شروط النصيَّة، وفي هذا المبحث سنتوقف عند تداخل (مجموع) الخطابات النصيَّة التي أسهمت في إنتاجية (النكت العصرية)، ذلك أن قابلية السيرة الذاتية نفسها لاستقطاب الخطابات الأدبية وغير الأدبية يمنحها القدرة الدائمة على تخصيب بنيتها النصيَّة، واجتراح صيغ متعددة لسرد الذات، أكان بوعي أم بدون وعي بطبيعة الممارسة النصيَّة من قبل صاحب السيرة.

أولاً: الخطاب الشعري:

لا ينهض الخطاب النثري وحده بتشكيل (النكت العصرية)، وإنما يتجاذبه خطاب شعري متصل به، فيتناوب الخطابان: النثري والشعري في تمددهما على بياض الكتابة في إيقاع منسجم من البداية إلى النهاية، وحضور الشعري بمعية النثري ظاهرة أصيلة في السرد العربي القديم، وكأنما يستمد النص النثري قوة وجوده في ظلال من النص الشعري سليل الثقافة الشفاهية، غير أن أهمية الخطاب الشعري تأتي ـ إلى جانب ما سبق ـ بوصف (النكت العصرية) سيرة ذاتية جزئية لجانب من حياة شاعر كبير له مكانة متميزة في تاريخ الشعر العربي القديم[٢٥]، وقد كان الشعر أداة للتعبير عن رأيه تجاه الأحداث والمواقف التي عايشها، ومناسبة لسرد الذات وانفعالاتها الداخلية، وبناءً على ذلك يمكن النظر إلى وظيفة الخطاب الشعري في وظيفتين:

١ـ الوظيفة السردية: عندما يأخذ السرد النثري بمكوناته البنيوية من تقنيات وشخوص وأحداث بتسريد مروي الحياة، يتخلله خطاب شعري يأتي شاهدًا ومكملًا له، غير أن اجتياح الشعر وسردنته مواقف مهمة من حياة عمارة وعلاقاته بالآخرين حول السرد النثري في بعض الأحيان إلى سياق نصي يبرر حضور الشعر وانهماره في النص: الشعر الذاتي، قصائد المديح والمناسبات، ظروفها ومكافآتها التعليق على الشعر، وكأن السرد النثري قد استنفد طاقته، فجاء الشعر للدلالة على المروي، وتداخل في أثناء ذلك صوت الراوي بصوت الشاعر، وقد كان عمارة على وعي بأهمية الشعر ووظيفته في ملء الفجوات التي يتركها تلخيصه السريع لأحداث كثيرة، يقول: "وهذه السنوات التي وزر فيها شاور وزارته الثانية كثيرة الوقائع والنوازل، وفيها ما هو عليه أكثر مما

هو له، وربما شرحت من ذلك في مواضعه من هذا المجموع، ما يشهد النظم بصحة دعواه، وصدق نجواه" (ص٨١)، و"ما من هذه الأحوال وغيرها إلا ما وسمته بشيء من النظم، وأنا مورد منه ما يكون شاهدًا لما ذكرته" (ص٦٩)، وحسبنا الإشارة إلى مثال نصي بارز لهذا التداخل، يصبح فيه الشعر أحد عناصر بنية الخطاب السردي، فحين يذكر عمارة قصة ابتعاده من مجلس الملك الصالح طلائع بن رُزِّيك بسبب ما كان يجري فيه من الخوض فيما يكرهه بحق بعض الصحابة، وهنا لا يمكن إغفال دلالة الانتقاء الذي ظل يمارسه عمارة في تخيره للمروي من سيرته الذاتية في أثناء اتصاله بالوزراء الفاطميين، ما يسم السيرة بالبعد التبريري في الدفاع عن مذهبه السني تجاه ما أثير حول تشيعه من روايات، يقول: "وانقطعت في منزلي أيامًا ثلاثة ورسوله في كل يوم والطبيب معه، ثم ركبت بالنهار فوجدته في البستان المعروف بالمختص في خلوة من الجلساء، فاستوحش من غيبتي، وقال: خيرًا، فقلت: إني لم يكن بي وجع، وإنما كرهت ما جرى في حق السلف الصالح وأنا حاضر، فإن أمر السلطان بقطع ذلك حضرت، وإلا فلا، وكان لي في الأرض سعة، وفي الملوك كثرة، فعجب من هذا، وقال: سألتك بالله ما الذي تعتقد في أبي بكر وعمر، قلت: أعتقد أنه لولاهما لم يبق الإسلام علينا ولا عليكم، وأنه ما من مسلم إلاّ ومحبتهما واجبة عليه، ثم قرأت قول الله تعالى: "ومن يرغب عن ملة إبراهيم إلا من سفه نفسه" فضحك، وكان مرتاضًا حصيفًا قد لقي في ولايته فقهاء السنة، وسمع كلامهم، [..] ولم أشعر في بعض الأيام حتى جاءتني منه رقعة فيها أبيات بخطه ومعها ثلاثة أكياس ذهبًا، والأبيات قوله:

قل للفقيه عمارة يا خير من أضحى يؤلف خطبة وخطابا
اقبل نصيحة من دعاك إلى الهدى قل حطة وادخل إلينا البابا
تلقى الأئمة شافعين ولا تجد إلا لدينا سنة وكتابا
وعليَّ أن يعلو محلك في الورى وإذا شفعت إليَّ كنت مجابا
وتعجل الآلاف وهي ثلاثة صلة وحقك لا تعدُّ ثوابا

فأجبته مع رسوله بهذه الأبيات:

حاشاك من هذا الخطاب خطابا يا خير أملاك الزمان نصابا
لكن إذا ما أفسدت علماؤكم معمور معتقدي وصار خرابا
ودعوتموا فكري إلى أقوالكم من بعد ذاك أطاعكم وأجابا

فاشدد يديك على صفاء مودتي وامنن عليَّ وسدَّ هذا البابا" (ص٤٤).

إذًا لم تكن الدعوة المنظومة التي أرسلها الوزير الصالح طلائع بن رُزيك لعمارة كي يتبعه في التشيع، ورد عمارة إلا ضمن وحدة نصيَّة سردية: نثرية وشعرية، أدى كل خطاب فيها دلالته المعنوية والنصيَّة، وكان يمكنه الاستمرار في الصيغة النثرية لهذه الوحدة النصيَّة، غير أن حضور الشعر بوصفه خطابًا مباشرًا منح السرد ذلك البعد الحواري والتعدد الصوتي، بحسب المفهوم الحواري الباختيني، بفعل ما يثيره هذا الخطاب الشعري السجالي من دلالات وانفتاح على التخييل، وهذا يعني أن الخطاب الشعري لحمة أصيلة في بنية النص، لا زائدة عليه يمكن الاستغناء عنها أو صوغه في خطاب منقول أو محول عن صيغته الأصلية، وعلى هذا المنوال يتضافر الخطابان السرديان ـ الشعري والنثري ـ ويتداخلان على مستوى النص، فيحمل كل واحد منهما الآخر.

٢ـ **الوظيفة السيرذاتية:** وتكمن هذه الوظيفة في كون الخطاب الشعري الوعاء النصي لحديث الشاعر عن نفسه وانفعالاته الداخلية، ليشكل صورة جنينية لما يطلق عليه الآن سيرة شعرية ذاتية، وهي أحد أنماط السيرة الذاتية، ويقال لها في بعض الأحيان (القصيدة السيرذاتية)، وهي في أبسط تعريفاتها "قول شعري ذو نزعة سردية، يسجل فيه الشاعر شكلًا من أشكال سيرته الذاتية، تظهر فيه الذات الشعرية الساردة بضميرها الأول، متمركزة حول محورها الأنوي، ومعبرة عن حوادثها وحكاياتها عبر أمكنة وأزمنة وتسميات لها حضورها الواقعي خارج ميدان المتخيل الشعري"[٢٦] ما يعني أن العنصر الحاسم فيها يعود للنوع الشعري الذي تروى بوساطته، إلى جوار حضور الميثاق السيرذاتي في بنية القصيدة أو مجموعة القصائد التي تشكل منها، ومن المعلوم أن الشعر العربي القديم لم يخل في تاريخه الطويل من أحاديث الشعراء عن حيواتهم، واتخاذهم لقصائدهم أفضية للحديث عن ذواتهم، و"قد تضمن في أعطافه بذور السيرة الذاتية قبل أن تستقل فنًا من فنون القول"[٢٧]، حتى في قصائد المديح الأكثر احتفاءً بالآخر ومناقبه، ظلت القصائد تنطوي على أبعاد ذاتية تتصل بالشعراء أنفسهم، وأكثر السير الذاتية العربية التراثية تنطوي على قدر من شعر أصحابها، غير أن الوعي بهذا الشعر من قبل بعض الدارسين ظل في إطار الاهتمام الهامشي، على الرغم من قيمته التعبيرية عن الذات، ولذلك "فإن هذا الشعر يجب أن يفهم في واقع الأمر باعتباره عنصرًا مركزيًا، وليس مجرد

(تزيين) في تقليد السيرة الذاتية"[٢٨]، ومن هذا الوعي بأهمية الشعر ووظيفة ينبغي النظر إليه في سيرة عمارة الذاتية.

والمتأمل في قصائد عمارة ومقطوعاته الشعرية التي تخيَّر استدعاءها من ديوانه إلى (النكت العصرية) سيجدها تتصل اتصالًا مباشرًا بمروي حياته، لاسيما في الشطر المصري منها، وسيجد ذلك الحضور القوي لأنا الشاعر التي تبوح بجزء من حياتها وانفعالاتها، مما لا يتسع المجال لذكره، ما يشكل أحد المظاهر الشعرية لدى عمارة، ليس في (النكت العصرية)، وإنما في ديوانه كذلك، فقد ظل شديد الاعتداد بعروبته ونقاء لسانه، حتى في ظل مخاطبته ممدوحيه، يقول في إحدى قصائده مخاطبًا الوزير الفاطمي شاور:

أنا العربي المحض شعرًا ومعشرًا إذا شان قومًا شعرها أو عشيرها

هذه النزعة النرجسية في الاعتزاز بالذات والحديث المستمر عن مكانتها وتاريخها وأحوالها تضفي على الشعر طابعًا سيرذاتيًا، وحسبنا الإشارة إلى قصيدته (شكاية المتظلم ونكاية المتألم) التي وجهها إلى صلاح الدين الأيوبي، لهذا اللون الشعري المتمركز حول الذات في أدق اللحظات مخاطبة للآخر، حيث تعلو الأنا بقوة لتروي جوانب من حياتها وتاريخها ومواقفها، ولا نبالغ في القول بأنها قصيدة ذات بعد سيرذاتي واضح، بما في ذلك منحها العنوان الذي لم يكن تقليدًا نصيًّا في الشعر العربي إلا في العصر الحديث، ومطلعها:

أيا أذن الأيام إن قلت فاسمعي لنفثة مصدور وأنة مُوجَع

ثانيًا: التأريخ، المذكرات والرحلة:

هل (النكت العصرية) كتاب في التأريخ لأخريات الخلافة الفاطمية في مصر؟ أم كتاب مذكرات يصف علاقة عمارة بملوك مصر ووزرائها وأمرائها وقتئذ؟، أم هو كتاب رحلات عمارة وتنقله في الأمكنة المتعددة جنوبًا وشمالًا؟، هذه تساؤلات تثيرها خطابات نصيَّة تلقي بنفسها في وجه المتلقي ما يستدعي التعرف إلى مستويات تداخلها ووظائفها.

لتكن البداية من سؤال التاريخ، وكل سيرة ذاتية إنما هي ممارسة نصيَّة تأريخية للذات التي تدون فيها أحداث حياتها، والمتتبع تاريخ السيرة الذاتية العربية التراثية سيجد أنه يصعب فصلها عن السرد التأريخي، وذلك بسبب ارتباط السيرة بنوعيها الغيري والذاتي بحقل التأريخ الذي خرجت من جبته، والذي كان يغلب عليه شكل التراجم والطبقات أو المؤلفات التأريخية المعاصرة لأحداث يعايشها المؤلف بنفسه، وكان لهذه المعاصرة أثر في وجود الشذرات

الذاتية المبعثرة التي تتصل بالمؤلفين أنفسهم، وليس بالمصادفة أن نجد جلَّ أصحاب السير الذاتية التراثية من بيئتي العلماء والمؤرخين، أو ممن ولجوا إلى السيرة الذاتية من بوابة التأريخ، كالعماد الأصفهاني (ت ٥٩٧) وأبي شامة المقدسي (ت ٦٦٥) ولسان الدين بن الخطيب (ت ٧٧٦) وابن خلدون (ت ٨٠٨) والسخاوي (ت ٩٠٢) والسيوطي (ت ٩١١)، وهذا ينطبق على عمارة أسبقهم إلى ذلك، والذي لم يغفل الإشارة إلى نفسه في بث شذرات متفرقة من سيرته الذاتية في (تاريخ اليمن)، لم تخل في بعض الأحيان من النزعة الاعترافية، وهو كتاب مهم لم يلتفت إليه من هذه الناحية، كما أنه في (النكت العصرية) لم يغادر أدوات المؤرخ وآلياته، بداية بتخيره للعنوان المفارق الموحي بكتاب في التأريخ، مما سبق ذكره في المبحث الأول، وما يعنينا الآن هو مدى اشتغال سيرته الذاتية على آليات السرد التأريخي، وحسبنا التمثيل لها بالآتي:

أ- إسناد الخبر: وهي "عملية يقوم بها الراوي تتمثل في إنشاء خيط واصب بينه وبين مصدر الخبر"[٢٩]، ووظيفتها أنه عندما يفارق الراوي مرويه، ولكي يوثق روايته للخبر المنقول من أوثق مصادره يلجأ إلى السند، وهي آلية متطورة في علم الحديث النبوي، الهدف منها الوصول إلى أوثق روايات الحديث، تسربت هذه الآلية إلى مجال كتابة التاريخ، وتتميز بكلمات استهلالية، ولكل واحدة منها دلالتها في نظام الإسناد، أشهرها: (حدثنا وحدثني، وأخبرنا وأخبرني) وتشيران إلى سماع الخبر مشافهة من مصدره.

تحضر صيغة (حدثني) بتواتر في المواضع التي يبدو فيها عمارة مفارق لمرويه، يجهل الخبر، إمَّا لمسافة زمانية، وإمَّا لمسافة مكانية تفصله عن مرويه، فيلجأ إلى نقله بإسناده إلى راوٍ، هو مصدر معلوماته، من قبيل: "حدثني أخي يحيى بن أبي الحسن.."(ص٨)، و"وحدثني الفقيه محمد بن حسن الأوقص.."(ص٨)، " حدثني أبي قال"(ص١٠)، "حدثني جياش بن إسماعيل قال"(ص٣١)، "حدثني القاضي الأجل القاضي عبدالرحيم بن علي البيساني، قال"(ص٧٩). وعلى الرغم من محدودية الخبر المروي وفق النظام الإسنادي، واتصاله بمروي حياة عمارة، فإنه يبدو ناكئًا مدققًا فيما يرويه، متحريًا الصدق الذي اشترطه على نفسه في استهلال مقدمته، ذلك أن "الإسناد آلية سردية يحرص المؤلف على توافرها في النص استجابة لنزوع ثقافي عربي يؤثر الصدق والواقعية"[٣٠]، وهو بهذه الآلية قد تخير توشية خطابه السيرذاتي بعمل راوي الأخبار المدقق في صحتها.

ب ـ التعليق والتفسير: لم يكتف عمارة في سرده لبعض الأحداث التي عاصرها بدور الراصد المشاهد مما تتيحه له تقاليد السيرة الذاتية، وإنما أخذ في التعليق عليها وتفسيرها، ليؤدي في أثناء ذلك وظيفة المؤرخ الذي يحاول تنبيه القارئ إلى بدايات الأحداث وأسبابها، والنتائج التي أدت إليها، والخروج بخلاصات جوهرية ـ من وجهة نظره ـ يقدمها للقارئ، من قبيل، أنه بزوال دولة بني رُزِّيك "إنما زالت دولة مصر بزوالهم" (ص٦٨)، فهذا رأي سياسي واضح، ولعله الجزء المهم من الخطاب الذي تحاول السيرة الذاتية تمريره إلى القارئ، لأن عمارة لم ير فيمن جاءوا بعدهم، غير مغتصبين للحكم، وفي أحيان كثيرة كان يتجه إلى سرد تفاصيل ربما تشكل مصدرًا مهمًا لدارسي حقبة تاريخية بالغة الحرج والحساسية من تاريخ مصر الإسلامية، لحظة انتقالية بحسب المفهوم السياسي الحديث، بين نظامين حاكمين، وقد أتيح لعيني عمارة ما لم يتح لكثير من المؤرخين، بالتوقف عند بعض التفاصيل، ما جعل المهتمين بالتاريخ الإسلامي يلتمسون في (النكت العصرية) المعلومات والشهادات التاريخية، وهذا يعني أهمية الجانب التأريخي الذي تغطيه، ولكن في صيغة أدبية سردية، بحيث يمكن القول بوقوع قسم منها في الحقل البيني؛ بين الأدب والتاريخ، وبهذا المعنى فقط يمكن النظر إلى نصيَّتها وخطابها التأريخي ووظيفته.

إن السرد التأريخي للوقائع والأحداث التي عاصرها عمارة في مصر في نهاية الخلافة الفاطمية، واتخاذه من الحديث عن حكامها ووزرائها وأمرائها موضوعًا لسرد جوانب من حياته الخاصة التي يتقاطع مرويها ويرتهن بحيوات هؤلاء السياسيين، يفضي بالنكت العصرية إلى الانفتاح على حقل المذكرات، وهي ممارسة نصيَّة "يعنى فيها صاحبها بتصوير الأحداث والوقائع التاريخية أكثر من تصوير واقعه الذاتي"[٣١]، وتُعدُّ مصدرًا مهمًا للباحثين في التاريخ، ذلك أن "كاتب المذكرات لا يكتب أدبًا بالدرجة الأولى، ولكنه يقص تاريخ عصره ومجتمعه من خلال رؤيته وتقويمه للأحداث"[٣٢]، وعلى الرغم من ذلك لا تؤدي النكت العصرية التي تقطر أدبًا وسردًا ذاتيًا في كل أقسامها وظيفة المذكرات بالمعنى الدقيق، ما يثير السؤال عن حدود تداخلها بالمذكرات، ويبدو أن انشغال عمارة بالشؤون السياسية دفع النقاد إلى أن يطلقوا عليها مصطلح (مذكرات) التي هي ممارسة نصيَّة للمشتغلين بالشأن السياسي، ولذلك فقد عدَّها شوقي ضيف ضمن المذكرات السياسية التي كتبها رجال السياسة في القرنين الخامس والسادس الهجريين، وهي عنده سيرة المؤيد داعي الدعاة، والتبيان عن الحادثة الكائنة بدولة بني زيري في غرناطة، والنكت العصرية في أخبار الوزراء المصرية، والاعتبار[٣٣]، وذلك ما ذهب إليه فرانز روزنثال F.

Rozenthal، الذي يرى أن "من بين مؤلفي المذكرات اثنان عاشا في القرن الثاني عشر [الميلادي] وتميزا بطريقتهما الجديدة في معالجة موضوعها، هما عمارة اليمني في كتابه النكت العصرية في أخبار الوزراء المصرية، وأسامة بن منقذ في كتابه المشهور الاعتبار، أما عمارة فقد بدأ بترجمة حياته، وسار بها إلى زمن استقراره بمصر، ثم تكلم على تاريخ الوزراء المصريين كما أراد من عنوان الكتاب"[٣٤]، وواضح أن ضيف وروزنثال يجنّسا القسم الأكبر منها في خانة المذكرات، وهذا الرأي على الرغم مما يمكن تبريره بسبب الخلط الكبير بين مصطلحي السيرة الذاتية والمذكرات عند الغربيين، لأسبقية الأخير في الثقافة الغربية[٣٥]، غير دقيق بالنسبة للشطر المصري من حياة عمارة، ذلك أنه ظل يتحدث فيه عن حياته الخاصة، بل على عكس ذلك تمامًا، حفل هذا الشطر بعناصر سردية تتصل بخليط من سرد الحياة الخارجية المتصلة بالعصر الذي عاشه والأحداث السياسية والشخصيات التي أثرت في حياته، وسرد الحياة الداخلية وانفعالاتها، ومختلف مشاعره، كالعتاب، الصداقة، الاعتذار، الرجاء، الغضب، الخوف، والحزن..، والتي انتابه في أثناء ذلك، يقول في هؤلاء الوزراء والأمراء: "فما منهم إلا من كاثرته وعاشرته، وبلوت سمينهم وغثهم، وقويهم ورثهم، وانكشف المصقول من الصّدي، والجيد من الرَّدي"(ص٩٣)، كما أن حديثه عن عاطفته الدينية ومعتقداته منح سيرته بعدًا تبريريًا في الدفاع عن مذهبه السني في الوسط الشيعي السياسي الذي خالطه، مما هو ليس بخاف على المتأمل سرد الشطر المصري من حياته، وكأنما جاء استجابة استباقية لما أثير بعد موته حول تشيعه المزعوم، وقد استطاع في أثناء ذلك تمرير خطابه بأسلوب سردي قصصي حواري، وحسبنا الإشارة إلى أن أحاديثه مع الأمير سيف الدين ابن أبي الهيجاء صهر الملك الصالح، الذي وصفه بالتعصب في المذهب، تندرج في مجال حديث عمارة عن مواقفه الاعتقادية ودفاعه عنها[٣٦].

ويتصل بجانب سرد الانفعالات الداخلية ذلك الحزن والحنين الذي ظلَّ يبديه على آل رُزِّيك، معترفًا بمشاعره الصادقة تجاههم وأثرهم الكبير في حياته، والذين قال فيهم: "ذكر الله أيامهم بحمد لايكلُّ نشاطه، ولا يطوى بساطه، فقد وجدتُّ فقدهم، وهُنت بعدهم" (ص١٢٠)، ولعلّ هذه العلاقة الخاصة التي ربطته بهم السبب فيما يذكر عن ولائه للفاطميين، وهو ولاء شخصي ربط عمارة الشاعر بممدوحيه من الوزراء الذين كانوا يعملون لدى الخلفاء الفاطميين في مصر، أكثر من كونه ولاءً سياسيًا أو دينيًا مباشرًا للفاطميين أنفسهم، ويتصل بهذه الناحية الانفعالية وصفه بأسلوبه السردي الحواري الموقف المفزع الذي آلمه بعد مقتل رُزِّيك بن الصالح، يقول: "ثم دخلت قاعة السر من دار

الوزارة وفيها طي بن شاور وضرغام وجماعة من الأمراء مثل عز الزمان ومرتفع الظهير ورأس رُزِّيك بن الصالح بين أيديهم في طست، فما هو إلا أن لمحته عيني ورددت كمي على وجهي ورجعت على عقبي، وما ملأت عيني من صورة الرأس، وما من هؤلاء الجماعة الذين كان الرأس بين أيديهم إلا مات قتيلًا وقطعت رأسه عن جسده، فأمر طي من ردني، فقلت: والله ما أدخل حتى يغيب الرأس عن عيني، فرفع الطست، وقال لي ضرغام: لم رجعت؟، قلت بالأمس وهو سلطان الوقت الذي نتقلب في نعمته، قال: لو ظفر رُزِّيك بأمير الجيوش أو بنا ما أبقى علينا، قلت: لا خير في شيء يؤول بصاحبه من الدست إلى الطست، ثم خرجت وقلت:

أعزز عليَّ أبا شجاع أن أرى ذاك الجبين مضرجًا بدمائه

ما قلبته سوى رجال قلّبوا أيديهم من قبل في نعمائه" (ص٦٦).

وفي الموقف الذي يستدعي مديحه للوزير شاور على حيازته الوزارة بقوة السيف من آل زُرِّيك، لا يبرح ذكرهم في وجهه، ملتمساً في بلاغة الشعر ما يتيح له أن يرثي القتيل في وجه قاتله، يقول له:

ولو شكرت لياليهم محافظة لعهدها لم يكن بالعهد من قدم

ولو فتحت فمي يومًا بذمهم لم يرض فضلك إلا أن يسدَّ فمي

والله يأمر بالإحسان عارفه منه وينهى عن الفحشاء في الكلم" (ص٧٠).

وقد وقف عمارة بعد ذلك مدافعًا عن شاور وأبنائه أمام خصومهم، يقول في تبرير الوفاء لذكرى شاور، على الرغم من اقتناعه بمآخذ الآخرين عليه: "وما مَثَلي ومثلُ غيري معه إلا مَثَل رجل قُتل أبوه فقتل خيراً من أبيه، ثم قال كان أبي لي جيداً وإن كان رديَّاً عندكم" (ص٩٣)، وأخبرنا عن الخوف والقلق الذي ظلَّ يؤرقه في مدة وزارة ضرغام، بسبب نقمته عليه من موقف جرى يوم مقتل الملك الصالح، يقول: "وكنت في أيامه خائفًا منه متعلقًا بصحبة أخيه ناصر المسلمين، وأحضرني ليلة بساع إلى قاعة البستان من دار الوزارة بعد شهرين من وزارته فوقع في خاطري منه توهم لم يزله إلا حسن الإيناس عند الحضور.." (ص٧٤)، ويقول: "لما داخلني الخوف من ضرغام انقطعت إلى أخيه هُمام، ولم يكن ذلك إلا في آخر مدته.." (ص٧٧).

هذه المشاعر الداخلية وغيرها كثيرة مما نجدها مبثوثة باطراد في (النكت العصرية)، هي مما يتصل بحديثه المباشر عن تجاربه الشخصية ومواقفه الخاصة، ومختلف انفعالاته الداخلية الخاصة تجاه الأحداث والشخصيات، وهي سرد للذات أكثر من كونها سرد للآخر كما تفعل المذكرات السياسية.

ويمكن أن نخلص ـ جازمين ـ أن معيار العلاقة بين سرد الذات وسرد الآخر هو ما يبرر جنوح النص إمَّا باتجاه السيرة الذاتية، وإمَّا باتجاه المذكرات، وبناءً على ذلك تقع (النكت العصرية) في الحقل البيني بين هذين الجنسين من الكتابة الذاتية، ففي القسم الأول الذي يروي جوانب من حياته في اليمن والحجاز، ظل السرد شديد الاتصال بحديث عمارة عن نفسه بدرجة رئيسة، ومجردًا عن البعد التاريخي، فيما اتجه القسم الآخر المتصل بمروي حياته في مصر إلى المزج بين سرد الحياة الداخلية، وسرد الشخصيات والأحداث والمشاهدات العامة، فخُصِبَّ هذا القسم بأسلوب المذكرات، لكنه لم ينتزع (النكت العصرية) من فضاء السيرة الذاتية إلى فضاء المذكرات السياسية.

وهذا التداخل النصي ينطبق على سير ذاتية تراثية أخرى، نُظر إليها من زاوية اشتغال أصحابها بالسياسة، فأطلق عليها اسم مذكرات، ما يستدعي إعادة النظر في تجنيسها، بالانطلاق من خصوصيتها النصيَّة، ونضرب مثلا بسيرة عبدالله بن بلقين (التبيان) التي غير محققها ليفي بروفسنال عنوانها الأصلي إلى (مذكرات الأمير عبدالله) فنتج عن ذلك تلق سلبي لها، بوصفها كتاب مذكرات سياسية إلى أن جاء من عالج قضية تجنيسها بالانطلاق من مقوماتها السيرذاتية، وأسكنها فضاء السيرة الذاتية من جديد بدراسة مستفيضة[٣٧]. ولعلَّ من الأنسب الإشارة ـ هنا ـ إلى أن الدراسات النصية الحديثة لتطور الأجناس الأدبية وتحولاتها عبر التاريخ، ومن بينها السيرة الذاتية وأنماطها النصية، كفيلة بتصحيح كثير من الأفكار المغلوطة حول السيرة الذاتية العربية التراثية، والتي تحولت بفعل التكرار والاجترار إلى مسلمات لا تقبل النقاش لدى بعض الدارسين، وبعيدًا عن العواطف أو التحيز لنموذج تاريخي معين بوصفه الصيغة الأمثل للتطور، أو المعيار الذي تقارن من خلاله بقية الأشكال الأخرى، يمكن إعادة النظر في كثير من هذه المسلمات، وبذلك سيعاد الاعتبار للسيرة الذاتية العربية التراثية، وذلك ما نجد صداه في عدد من الدراسات العربية الحديثة لأنماط السيرة الذاتية التراثية[٣٨].

أما خطاب الرحلة فإنه إذا انطلقنا من تصور أولي لها في التراث العربي، بوصفها سرد الأمكنة والآخر والمشاهد المتصلة بالسفر من وجهة نظر الرحالة، فيمكننا مساءلته في (النكت العصرية)، وأول ما يلحظ توفرها على تيمة Theme الانتقال والسفر بقوة، بدافعي التجارة في أقاليم اليمن، والسفارة بين مكة ومصر، وهما دافعان مؤسسان لنص الرحلة في التراث، لكن وظيفتهما ظلت منقوصة، لأن حضور الأمكنة ظل حضورًا عابرًا، وتيمة السفر ظلت مجردة من الوظائف التي تؤديها، كالاكتشاف، المغامرة، سرد الآخر، والوصف، وانحسرت صورة الآخر ووصفه في مجرد طبقة من السياسيين والحكام، وبغياب الوعي بالرحلة نفسها تضاءل وصف الحياة العامة في البيئة المصرية وقتئذ، على الرغم من تسرب شذرات بسيطة عن الحياة الاجتماعية في مصر الفاطمية في القرن السادس، تقدم للقارئ معلومات بسيطة للغاية، لا تبل فم الصادي، ولا تلبي أفق توقعه في التعرف إلى هذه الحياة.

وعلى الرغم من تقاطع خطاب الرحلة بخطاب السيرة الذاتية، بفعل تسرب الأخيرة في كثير من الأشكال السردية التراثية، ظل خطاب الرحلة الأقل حضورًا بين الخطابات النصيَّة، إلا إذا عُدَّت تيمة السفر والانتقال بدافعي التجارة والسفارة، وسرد الآخر (الوزراء المصريين) مما يقربها إلى الرحلة، وذلك ما دفع عبدالله الحبشي لإدراجها في كتب الرحلات على استحياء، إذ يقول: "هو في الحقيقة من كتب التراجم الذاتية، وإن كنا سنعتبره هنا من كتب الرحلات من باب التجوز"[٣٩].

ثالثًا: سرد الحياة وثقوب النص:

غني عن البيان أنه ما كان لأية سيرة ذاتية مهما ادعت إحاطتها بتفاصيل حياة ما أن تغطيها، ولذلك يعمد صاحبها إلى حجب تفاصيل وانتقاء أخرى، بحسب الهدف من الحديث عن النفس وطبيعته، وهنا سنحاول مقاربة مروي سيرة عمارة الذاتية، والطريقة التي تروى بها، ذلك أن "نص السيرة الذاتية يقدم سردًا لحياة معينة، ونصيَّة نص السيرة الذاتية تؤسس ما يعرف عن تلك الحياة، والطريقة التي تُعرف بها"[٤٠]، وبالانطلاق مما يقدمه سرد الحياة في (النكت العصرية) وبحسب القراءة الخطية لمسار الحياة وتشكلها في النص، يمكن تقسيم سيرة عمارة الذاتية إلى ثلاث مراحل:

أ- الطفولة والتكوين:

لسرد هذه المرحلة أهمية خاصة في أعراف السيرة الذاتية، ذلك أن "الطفولة ومراحل التكوين عموماً هي البلاغة النموذجية التي تكشف عنها السيرة الذاتية"[٤١]، وقد أخذ عمارة منذ البداية يخبرنا بعد سلسلة نسبه عن مولده في بيئة مكانية واجتماعية نموذجية، وفق الوعي الجمعي البدوي، فهي قرية معزولة في أعلى جبل من وادي وساع في اليمن، ما أدى إلى سلامة لغتها لأن "أهلها بقية العرب في تهامة لأنهم لا يساكنهم حضري ولا يناكحونه ولا يجيزون شهادته ولا يرضون بقتله قوداً بأحد منهم" (ص٧)، ويتضاءل في أثناء ذلك سرد الطفولة بما يمكن أن ينطوي عليه من أحداث الأطفال وسذاجتهم أمام سرد القبيلة والعائلة الذي يبرز مكانة الذات الاعتبارية من خلال إبراز المكانة الاجتماعية للقبيلة والأسرة ومآثرهما ورئاستهما، فيحتل الأقارب بؤرة السرد وموضوعه، يظهر الأعمام والأخوال وأبناء العمومة، وتبرز من بينهم شخصية عمه علي بن زيدان شيخ القبيلة الذي يتحول إلى شخصية مؤثرة في حياة عمارة، وخارقة بما يكتنف سرد أخبارها من المبالغات في كرمه وشجاعته وحكمته، واتساع سرد العائلة والقبيلة في أول السيرة لم يخل من دلالة المفارقة بين حالتين في حياة عمارة: شرف الأسرة ومكانتها الاجتماعية، وبالتالي مكانة الذات في الماضي، ووضعها الاجتماعي في الحاضر، لحظة كتابة السيرة الذاتية، لحظة الحاجة والفاقة، ولئن كان الاستطراد في سرد النسب والعائلة - بحسب جورج ماي - أحد مظاهر افتتاحيات بعض السير الذاتية الحديثة التي تكرس أثر الوضع الاجتماعي لأصحابها، بفعل تسرب هذه الظاهرة من الأشكال السردية التاريخية القديمة[٤٢]، فإنه يغدو من المألوف اتساع هذا السرد في بداية سيرة عربية تراثية، وفي إطار وعي خاص بأهمية الاستهلال التأطيري للذات ومكانتها الاجتماعية، إضافة إلى كمون الدافع النفسي الذي يمكن تأويله في هذا الاستطراد، وكأن عمارة يضعه في مواجهة الآخر المفارق له، وفي مواجهة الحياة الصعبة التي عاشها في آخر سني حياته، على أن الاحتفاء بسرد العائلة لا يعني غياب سرد الطفولة غيابًا تامًا، فهو يخبرنا عن شيخه الذي علمه القرآن في سن الثامنة (ص١٢)، وعن بعض مشاهداته لما كان يدور في مجلس عمه علي بن زيدان من تقاضي (ص١٥).

وينتهي سرد العائلة بحادثتين مأساويتين مؤثرتين في حياة عمارة وأسرته: الأولى القتال الذي دار بين أخواله وأعمامه وما نجم عنه من قتلى، ومآل شؤون القبيلة إلى أبيه، بعد وفات عمه علي بن زيدان، وهي السنة نفسها

التي بلغ فيها الحلم، والأخرى سنة القحط التي أهلكت الناس وأموالهم، وهكذا تختتم مرحلة الطفولة بالحرب وما أسفر عنها، والقحط وما أدى إليه، وهما في الوقت نفسه وفق المورث العربي القديم يتصلان بتحولات الحياة الاجتماعية البدوية عامة، ثم تحول بعد ذلك للحديث عن ظروف رحلة إلى مدينة زبيد لطلب العلم في مدارسها، وقصة نبوغه المبكر في تدريس الفرائض وبداية نظمه الشعر.

ب ـ مرحلة التجارة والسفارة:

تشمل هذه المرحلة رحلاته في أقاليم اليمن والحجاز، للتجارة أحيانًا، وللسفارات بين الولاة أحيانًا أخرى، ويبدأ سردها برحلة حجه في موكب الملكة الحرة أم فاتك ملك زبيد، ويذكر فيها قصة استعادته بعير ضال عن الموكب كان في هودجه امرأتين نائمتين، تعمد نزع ما في رجليهن من حلي، فأعادهما إلى الملكة أم فاتك، ويبدو أن عمارة بذكائه المثير تعمد ذلك ليتسنى له الوصول إلى لقاء الملكة الحرة بهذه الحيلة، لأنه كما يقول: "يا سبحان الله فما كان أبركها من ساعة لأني حصل لي منها جانب قوي وصورة جميلة وشفاعة مقبولة ووجاهة مبذولة، وتقدم على الأكابر من الفقهاء وأعيان الخواص وتسهيل الوصول إليها في وقت" (ص٢٦)، وقد استطاع استثمار هذه القصة بكل طاقته، فكانت سببًا فيما نجم عنها من مكانة فتحت له طريق التعرف إلى أكابر القوم، ومن بينهم الوزير أبي محمد سرور الفاتكي، واشتغاله بعد ذلك بالتجارة بين دولتي زبيد وعدن على الرغم من حربهما[٤٣]، وما درته عليه من أرباح عززت مكانته بين ملوك اليمن وأعيانها، يقول: "وامتد هذا الشوط من سنة ثماني وثلاثين إلى سنة ثماني وأربعين ما من أهل دولتي زبيد وعدن إلا من يغار على نصيبه من مجالستي ومؤانستي ويطلقون البضائع باسمي من الهند ومن عدن وزبيد ومكة ومن عيذاب برًا وبحرًا، فقضى ذلك باتساع الحال وذهاب الصيت" (ص٢٧)، ولكن الأحوال تتغير، فيذكر في نهاية هذه العشر السنوات السمان تعرضه لمؤامرة من أعيان زبيد، ما أدى إلى فراره إلى مكة متذرعًا بالحج، وكعادته في اصطناع الفرص واستثمارها، يلتقي في مكة بوالي الحرمين قاسم بن هاشم الذي توطدت علاقته به، فبعثه إلى مصر مرتين في سفارة سياسية إلى الخليفة الفاطمي الفائز ووزيره الملك الصالح طلائع بن رزيك التي قويت صلته بهما، واستقطب اهتمامهما، فكانا سببًا في رجوعه إلى مصر والإقامة فيها.

يتسم سرد هاتين المرحلتين بالخطية والتسلسل الزمني، والنزعة التأريخية في تحديد السنوات والشهور بدقة، والتي تغطي المدة من سنة موت

عمه علي بن زيدان في ٥٢٦ إلى ٥٥٠ هجرية، إلى رحلته الأولى إلى مصر في ربيع الأول سنة ٥٥٠هجرية، ما يمنح السرد بعدًا زمنيًا خطيًا تراتبيًا، غير أن سمة الوجازة والتلخيص في سرد الحياة في هاتين المرحلتين تركت ثقوبًا في (النكت العصرية) يمكن ملؤها بشذرات من كتابه السابق (تاريخ اليمن) الذي كتبه في ٥٦٤ هجرية، بطلب من القاضي الفاضل، وكأنما استعاض عمارة عن تكرار ذكرها بما جاء فيه، والناظر في مروي هذا الكتاب يستطيع تجميع هذه الشذرات الوفيرة التي تستكمل السرد في (النكت العصرية)، بما يسمها من نزعة اعترافية، وحسبنا الإشارة هنا إلى كلامه عن قريته ومشاهداته في مرحلة الطفولة لآثار المعارك الباقية في مدينة الزرائب، وقصة دخوله مدينة زبيد وإعجاب علمائها بفصاحته، ومرافقته علي بن مهدي في أثناء مدة تعليمه في زبيد إلى أن جاء أبوه فأعاده إلى المدرسة مرة ثانية، ثم صحبته للداعي محمد بن سبأ في عدن، وقصة اللقاء بالشيخ الحضرمي الفرضي الذي علمه حلّ فريضة مواريث معقدة عجز عنها الجميع في زبيد، وقد ذكر عمارة هذه القصة فيما يبدو وكأنه سرد اعترافي بقصة انتحاله حلّ هذه المسألة التي اجتهد في حفظها ومراجعتها، وإخفاء ذلك الشيخ الحضرمي في منزله بعيدًا عن الناس، إلى أن اصطحبه في رحلة حج التي اشترطها عليه الشيخ لقاء حلّ تلك المسألة، وقد رسخت بذلك سمعته عند أهل زبيد في علم فرائض المواريث، وكانت سببًا في نجاته من القتل، وهي قصة طويلة حافلة بالتشويق، وقصة انتحاله في مجلس الداعي محمد بن سبأ بيتي شعر من رقعة كان كتبهما الشاعر أبوبكر اليافعي الجندي، وهاتين القصتين وغيرهما مما لامجال لذكره تسمان شذرات سيرته الذاتية بالنزعة الاعترافية[٤٤].

ج ـ المرحلة الفاطمية:

تبدأ هذه المرحلة التي تشكل الشطر المصري من حياة عمارة بتحوله إلى شاعر بلاط، بداية من وصوله مصر في سنة ٥٥٠ هجرية، ومدحه الخليفة الفائز ووزيره الملك الصالح طلائع بن رُزيك قصيدته الميمية التي قال فيها:

فهل درى البيت أنّي بعد فرقتــه ما سرت من حرم إلا إلى حرم

ويستمر هذا الشطر من حياته إلى نهاية عهد الوزير شاور في مدة وزارته الثانية، إذ تتوقف السيرة الذاتية عند مقتل شاور في ٥٦٤ هجرية، على الرغم من تأخر كتابتها إلى ما بعد هذا التاريخ، وفي هذه المدة مدح الخلفاء والوزراء والأمراء الفاطميين، فنال مكافأتهم السخية، وتصف سيرته الذاتية

تطور علاقاته معهم إلى الصداقة الحميمة التي أتاحت له موقعًا مهمًا بينهم، ومشاركتهم تفاصيل شؤونهم.

وفي الجانب الاجتماعي تقدم (النكت العصرية) في هذه المرحلة سردًا محدودًا للغاية عن الحياة الخاصة، ولعلّ هذا الجانب مما يجب أن ينظر إليه بمقاربة "حميمية" للعناصر المطردة من مروي السيرة الذاتية التراثية، بحسب المقاربة التي يقترحها راينولدز[٤٥]، إذ يتسرب مرويّه فيها على شكل شذرات متشظية تمدنا بمعلومات عن حياته الاجتماعية، مثل امتلاكه منزلاً في ضفة الخليج، في الحي الذي يسكنه الأمراء، يطلق على هذا المنزل اسم (دار سعد الافتخار)، وقد تكررت الإشارة إلى احتراقه في أثناء احتراق جزء من القاهرة، ويذكر فقده جزءًا من شعره بسبب ذلك الحريق، ويتقدم في إحدى قصائده طالبًا العون من أحد الأمراء في إعادة بناء ذلك المنزل، وترد إشارة إلى وفاة زوجته وهي من اليمن، يحضر جنازتها ضرغام، ثم يقرر مساعدته في الزواج من امرأة أخرى، ويبدو أن عمارة ظل متصلاً بقومه في اليمن، فتأتي الإشارة إلى سفر أحد أبنائه إلى زبيد لاستعادة زوجته من هناك، لكنها تظل إشارات يسيرة للغاية، في مقابل اتساع سرد الأموال التي كان يحصيها بدقة متناهية، من نقود وألبسة ومواد عينية، وجوار أحيانًا، فهي تقدم تصورًا للحياة الاقتصادية في مصر الفاطمية في منتصف القرن السادس الهجري.

رابعًا السيرة الذاتية الشعرية:

تمدنا (النكت العصرية) بنمط نصّي من السيرة الذاتية، يتصل بطبيعة الحقل الأدبي الذي ينتمي إليه عمارة اليمني، وبوصفه شاعرًا قبل أية صفة أخرى، كان من الطبيعي أن يكون للشعر أثر مهم في تشكيل سيرته الذاتية، ولذلك فنحن أمام حياة ونص يكتبهما الشعر.

تُعرف السيرة الذاتية الشعرية بأنها "سرد نثري يتولى فيه الشاعر تدوين سيرته الشعرية فقط ـ تاريخًا ومكانًا وحادثة ـ لا يخرج فيها إلى تناول جوانب أخرى غير شعرية من سيرته إلا على النحو الذي له صلة ما يدعم قضيته الشعرية في السيرة"[٤٦]، ينطوي الجزء الأخير من هذا التعريف على حدٍّ صارم لا يمكن الاستجابة إليه في جميع السير الذاتية الشعرية، والتي ربما تتشكل في غير وعي بممارستها من قبل أصحابها، لتولدها في رحم سرد سيرذاتي عام، لا يخلو الحديث فيه عن التجربة الشعرية، والتركيز على عناصر بعينها، لاسيما إذا كان صاحب السيرة أحد الشعراء الذين حققوا منجزًا شعريًا

يؤهله للحديث عنه في أثناء كتابة سيرته الذاتية[٤٧]، وهي بخلاف السيرة الشعرية الذاتية التي تروى نظمًا في قصيدة مطولة أو مجموعة من القصائد.

وإذا أعدنا بناء شذرات سيرة عمارة الذاتية الشعرية، سنجدها تغطي محاور مهمة من شواغل تجربة شعرية لشاعر عاش في القرن السادس الهجري، وتمدنا بمادة مهمة عن شعره، مما لا نجده في المصادر الأدبية والتاريخية الأخرى، فليس هناك ما هو أصدق من حديث الشاعر عن نفسه، وتقديم شهادة شعرية ذاتية، ويمكن اختزالها في المحاور الآتية:

١ـ بدايات تفتق موهبته الشعرية في سن الخامسة والعشرين، واشتراط أبيه عدم نظمه الشعر في الهجاء، يقول: "ولما كان سنة تسع وثلاثين زارني والدي وخمسة من أخوتي إلى زبيد، وأنشدته شيئا من شعري فاستحسنه، ثم قال تعلم والله إن الأدب نعمة من نعم الله عليك، فلا تكفرها بذم الناس، واستحلفني أن لا أهجو مسلمًا قط" (ص٢٣) وهنا يبدو الأب على دراية بالشعر وأثره المستقبلي في حياة عمارة.

٢ـ أثر الشعر في إحداث تغيير كبير في مسار حياته، والانتقال من وظيفة الفقيه الذي يعلم الفرائض والمواريث، وفق مذهب الإمام الشافعي في حلقات العلم في مساجد مدينة زبيد، إلى نظم الشعر واستحقاق صفة شاعر، التي أدت إلى تنافس ساسة اليمن وأعيانها في التقرب إليه ومجالسته.

٣ـ المحنة التي تعرض لها في بسبب بعض شعره، ومؤامرة بعض وجهاء زبيد، ما دفعه للهرب إلى مكة، ثم إلى مصر.

٤ـ قصائد المديح التي أنشدها في البلاط الفاطمي، ومناسباتها ومكافآتها، وأثرها في ترسيخ مكانته الشعرية بين شعراء مصر الفاطمية آنذاك.

٥ـ التعليق على بعض قصائده، ما يمنح السيرة الذاتية الشعرية بعدًا نقديًا ذاتيًا.

٦ـ الاستقالة من نظم شعر المديح الرسمي في مدة وزارة شاور أو "الاستعفاء عن عمل الشعر".

٧ـ الدفاع عن مكانته الشعرية، وتبرير صلته بالحكام الفاطميين، ومدائحه فيهم.

الخاتمة:

نخلص في خاتمة هذا البحث إلى أن (النكت العصرية) سيرة ذاتية تراثية، ويمكن عدَّها أول سيرة ذاتية لشاعر عربي قديم، تتميز بالاستقلال النصي والطابع الأدبي، وقد تضافرت مجموعة من الخطابات النصيَّة في تخصيبها ومنحها الخصوصية النصيَّة، وهي جديرة أن تحتل مكانة خاصة في إطار السير الذاتية العربية التراثية، وبقدر ما تمدّنا به هذه السيرة من معلومات عن حياة صاحبها وتشف عن الذات وانفعالاتها، تنقض، إلى جوار أخواتها من السير الذاتية التراثية، الكثير من المسلمات والأفكار المغلوطة حول تاريخ السيرة الذاتية العربية التراثية، ما يجعلنا نخلص إلى أن السيرة الذاتية فن سردي تراثي أصيل في الثقافة العربية، وينبغي أن تدرس نصوصها في إطار أعرافها وسياقاتها الثقافية والتاريخية، وبهذا المعنى ليس أدب السيرة الذاتية أحد ثمار التعرف إلى الآداب الغربية كما يقال عنها وعن بعض الأنواع السردية الحديثة، وهي ليست ظاهرة تختص بها الثقافة الغربية وحدها كما يذهب إلى هذا الزعم كثير من النقاد الغربيين[٤٨]، ويتبعهم بعض الباحثين العرب في هذا الزعم.

وفي جانب آخر تدحض هذه السيرة الذاتية بعض الروايات التاريخية المغلوطة حول تشيع صاحبها. ولذلك يكتسب الدافع التبريري فيها أهمية خاصة، إذ تضعنا هذه السيرة أمام حقيقتين؛ الحقيقة التاريخية والحقيقة الموضوعية، الأولى التي يسعى المؤرخون لتثبيتها ويتناقلونها فيما بينهم، والأخرى التي تقدمها الذات عن نفسها، وهي محل عناية النقاد ودراسي الأب الذين يمكنهم أن يستشفوا الصدق من خلالها[٤٩].

وفي الأخير لم يكن بالإمكان تناول هذه السيرة من جوانبها كافة، ولذلك نلمح إلى أهمية جوانب أخرى يمكن مقاربتها، كالأسلوب الأدبي الذي تشكلت فيه، وظاهرتي القص والتناص اللتين تكتنفان هذه السيرة من أولها لآخرها، وحسبنا أن نكون قد وفقنا في لفت الأنظار إلى أهمية هذه السيرة الذاتية.

الهوامش :

(١) راينولدز، دويت: ترجمة النفس، ترجمة سعيد الغانمي، أبوظبي، هيئة أبوظبي للثقافة والتراث، ٢٠٠٩، ص٨٥.

(٢) حسبنا الإشارة إلى سيرتي عمر بن الخطاب لابن الجوزي (ت ٥٩٧)، وصلاح الدين لابن شداد (ت ٦٣٢).

(٣) الجزار، محمد فكري: العنوان وسميوطيقا الاتصال الأدبي، القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٨، ص٣٥.

(٤) المرجع السابق، ص٤٥.

(٥) بلعابد، عبدالحق: عتبات، بيروت، الدار العربية للعلوم، ٢٠٠٨، ص٧٤.

(٦) هناك سير ذاتية قبل عصر عمارة اليمني، جاءت على شكل رسائل لم يمنحها مؤلفوها عناوين، على الرغم من استقلالها النصي، مثل سيرة ذاتية للحكيم الترمذي (ت٢٩٧) في رسالة (بدء شأن أبي عبدالله) وعنوانها من وضع أحد أتباعه، وقد نشرت ضمن كتابه (ختم الأولياء)، والسيرة الفلسفية لأبي بكر الرازي (ت٣١٣)، وهي منشورة ضمن كتاب (رسائل فلسفية)، وسيرة ذاتية للسموأل بن يحيى المغربي (ت٥٧٠) يذكر فيها تحوله من اليهودية إلى الإسلام، ونشرت ضمن كتابه (إفحام اليهود).

(٧) ينظر مقدمة المحقق محمد كامل حسين: سيرة المؤيد في الدين داعي الدعاة ترجمة حياته بقلمه، القاهرة، دار الكاتب العربي، ١٩٤٩، ص ١١ وص٢٨.

(٨) ابن منظور: لسان العرب، ج٦، تحقيق لجنة من المحققين، القاهرة، دار المعارف، د.ت، ص٤٥٣٦.

(٩) المصدر السابق، الصفحة نفسها.

(١٠) الجرجاني، علي بن محمد: معجم التعريفات، تحقيق محمد صديق المنشاوي، القاهرة، دار الفضيلة، ٢٠٠٤، ص٢٠٧.

(١١) ابن منظور: لسان العرب، مصدر مذكور، ص٤٥٣٦.

(١٢) نقلًا عن: أشهبون، عبدالمالك: خطاب المقدمات في الرواية العربية، مجلة عالم الفكر، العدد٢ المجلد٣٣، ٢٠٠٤.

(١٣) دي لنجو، أندريا، في إنشائية الفواتح النصية، ترجمة سعاد بن إدريس نبيع، مجلة نوافذ، النادي الأدبي بجدة، العدد العاشر، ديسمبر ١٩٩٩.

(١٤) اليمني: عمارة بن أبي الحسن الحكمي: النكت العصرية في أخبار الوزراء المصرية، تحقيق هرتويغ درنبرغ، شالون، ١٨٩٧، ص٥، وسنكتفي بعد ذلك بالإحالة إلى الصفحة في المتن بين قوسين.

(١٥) لوجون، فيليب: السيرة الذاتية، ترجمة عمر حلي، بيروت، المركز الثقافي العربي، ١٩٩٤، ص٢٢.

(١٦) المرجع السابق، ص٢٣.
(١٧) المرجع السابق، ص٢٢، ونذكرها بشيء من التصرف.
(١٨) تتجاوز أنماط السيرة الذاتية الآن شرط اللغة ونثريتها، من ذلك السيرة الشعرية الذاتية، والسيرة الذاتية المصورة أو المرئية، كما أن تناول تاريخ الحياة الجزئي وسّع مفهوم السيرة الذاتية في مجموعة من النصوص، كالسيرة الذاتية في الطفولة أو النضج، والسير الذاتية الفكرية أو الإبداعية، أو المهنية.
(١٩) سلفرمان، ج. هيو: نصيات بين الهرمنيوطيقا والتفكيكية، ترجمة حسن ناظم وعلي حاكم، بيروت، المركز الثقافي العربي، ٢٠٠٢، ص١٧٨.
(٢٠) ضيف، شوقي: الترجمة الشخصية، القاهرة، دار المعارف، ط٤، ١٩٨٧، ص٩١.
(٢١) شعلان، عبدالوهاب: السرد العربي القديم، دمشق، مجلة الموقف الأدبي، العدد ٤١٢، ص٢٠٠٥.
(٢٢) الأندلسي، ابن حزم: طوق الحمامة، تحقيق فاروق سعد، بيروت، دار مكتبة الحياة، د.ت، ص٥٣.
(٢٣) الغزالي، أبو حامد: المنقذ من الضلال، تحقيق سميح دغيم، بيروت، دار الفكر اللبناني، ١٩٩٣، ص ٤٩.
(٢٤) القيرواني، ابن رشيق: العمدة في صناعة الشعر ونقده، ج١، تحقيق النبوي عبدالواحد شعلان، القاهرة، مكتبة الخانجي، ٢٠٠٠، ص٣٧٨.
(٢٥) لم يشكل الشعر جانبًا مهمًا من تراث كتاب السير الذاتية من العلماء والفلاسفة والمؤرخين، لأنهم لم يعرفوا بوصفهم شعراء، بخلاف عمارة اليمني الذي تضاءلت صفاته الأخرى أمام صفة شاعر.
(٢٦) عبيد، محمد صابر: السيرة الذاتية الشعرية، إربد، عالم الكتب الحديثة، ٢٠٠٨، ص١١٤.
(٢٧) شرف، عبدالعزيز: أدب السيرة الذاتية، القاهرة، الشركة المصرية العالمية للنشر، ١٩٩٢، ص٥١.
(٢٨) راينولدز، دويت: ترجمة النفس، مرجع مذكور، ص١٤١.
(٢٩) القاضي، محمد: الخبر في الأدب العربي، تونس، منشورات كلية الآداب منوبة، ١٩٩٨، ص٢٢٧.
(٣٠) شعلان، عبدالوهاب: السرد العربي القديم، مرجع مذكور.
(٣١) آل مريع، أحمد بن علي: السيرة الذاتية مقاربة الحد والمفهوم، صفاقس، دار صامد، ط٣، ٢٠١٠، ص٦٦.
(٣٢) المرجع السابق، ص٦٣.
(٣٣) ضيف، شوقي: الترجمة الشخصية، مرجع مذكور، ص٨٥.

(٣٤) روزنثال، فرانز: علم التاريخ عند المسلمين، ترجمة صالح العلي، بيروت، مؤسسة الرسالة، ط٢، ١٩٨٣، ص٢٣٨.

(٣٥) ماي، جورج: السيرة الذاتية، تعريب محمد القاضي وعبدالله صولة، أبها، النادي الأدبي، ٢٠١١، ص١٦١.

(٣٦) يُنظر على سبيل المثال الحوار الذي دار بينهما في مسألة الوضوء، وذكره تعرضه لمحاولة تغيير مذهبه، وموقفه المطمئن لمذهبه السني، مما يشف عن ثقته في تناول هذا الموضوع البالغ الحساسية، وحسن تخلصه مما تعرض له من إغراء، يقول: "لو لم أكن على بصيرة من مذهبي لمنعتني النخوة من التنقل"، ص١٢٦ و ص١٢٧.

(٣٧) يُنظر: الغامدي، صالح معيض: كتابة الذات، بيروت، المركز الثقافي العربي، ٢٠١٣، ص٧٣ وما بعدها.

(٣٨) ينظر على سبيل المثال: البحيري: أسامة محمد إبراهيم، أنماط السيرة الذاتية في التراث العربي وتشكيلاتها الزمنية، مجلة جذور، جدة، العدد٣٤ ، ٢٠١٣.

(٣٩) الحبشي، عبدالله محمد: الرحالة اليمنيون رحلاتهم شرقًا وغربًا، صنعاء، مكتبة الإرشاد، ١٩٨٩، ص١١.

(٤٠) سلفرمان: نصيَّات بين الهرمنيوطيقا والتفكيكية ـ مرجع مذكور ـ ١٣٩.

(٤١) عبدالغني، محمود: فن الذات، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، ٢٠٠٨، ص١٩٣.

(٤٢) جورج ماي: السيرة الذاتية ـ مرجع مذكور ـ ص١٧٩ وما بعدها.

(٤٣) يعتبر كارل بروكلمن اشتغال عمارة بالتجارة بين بلدين في حالة حرب، وانتزاعه خلخالي ذهب من قدمي امرأتين نائمتين من "الصنائع الفاحشة" التي روى ارتكابها، وهو بذلك يلمح للجانب الاعترافي في هاتين القصتين، ينظر: ما صنف العرب في أحوال أنفسهم ـ ك.بروكلمن ـ ضمن كتاب: المنتقى من دراسات المستشرقين ـ الجزء الأول ـ صلاح الدين المنجد ـ دار الكتاب الجديد ـ بيروت ـ ط٢ ـ ١٩٧٦ ـ ص١٩.

(٤٤) ينظر: اليمني، عمارة بن أبي الحسن الحكمي، تاريخ اليمن، تحقيق حسن سليمان محمود، مكتبة الإرشاد، صنعاء، ط٢ ، ٢٠٠٩ ، الصفحات: (٥٠/ ٥٧/ ٦٦/ ١٠٨/ ١٣٠/ ١٤٦/ ١٤٩/ ١٥١، وما بعدهم).

(٤٥) راينولدز، دويت: ترجمة النفس، مرجع مذكور، ص١٢٠.

(٤٦) عبيد، محمد صابر: السيرة الذاتية الشعرية، مرجع مذكور، ص١١٠.

(٤٧) من ذلك سيرة لسان الدين بن الخطيب الذاتية (ت ٧٧٦ هـ) المحمولة في نهاية كتابه (الإحاطة في أخبار غرناطة)، وهي سيرة طويلة تضمنت جانبًا من شعره ورسائله.

(٤٨) ماي، جورج: السيرة الذاتية، مرجع مذكور، ص٢٩.

(٤٩) الغامدي، صالح معيض: كتابة الذات، مرجع مذكور، ص٨٨.

المصادر والمراجع:

(أ): المصادر:

ابن منظور: لسان العرب، تحقيق لجنة من المحققين، القاهرة، دار المعارف، د.ت.

الأندلسي، ابن حزم: طوق الحمامة، تحقيق فاروق سعد، بيروت، دار مكتبة الحياة، د.ت.

الجرجاني، علي بن محمد: معجم التعريفات، تحقيق محمد صديق المنشاوي، القاهرة، دار الفضيلة، ٢٠٠٤.

القيرواني، ابن رشيق: العمدة في صناعة الشعر ونقده، تحقيق النبوي عبدالواحد شعلان، القاهرة، مكتبة الخانجي، ٢٠٠٠.

الغزالي، أبو حامد: المنقذ من الضلال، تحقيق سميح دغيم، بيروت، دار الفكر اللبناني، ١٩٩٣.

اليمني: عمارة بن أبي الحسن الحكمي:

ـ تاريخ اليمن، تحقيق حسن سليمان محمود، مكتبة الإرشاد، صنعاء، ط٢ ، ٢٠٠٩

ـ النكت العصرية في أخبار الوزراء المصرية، تحقيق هرتويغ درنبرغ، شالون، ١٨٩٧.

(ب): المراجع:

أشهبون، عبد المالك: خطاب المقدمات في الرواية العربية، مجلة عالم الفكر، العدد٢ المجلد٣٣، ٢٠٠٤.

آل مريع، أحمد بن علي: السيرة الذاتية مقاربة الحد والمفهوم، صفاقس، ط٣، دار صامد، ٢٠١٠.

البحيري، أسامة محمد إبراهيم: أنماط السيرة الذاتية في التراث العربي وتشكيلاتها الزمنية، مجلة جذور، جدة، العدد٣٤ ، ٢٠١٣.

بلعابد، عبد الحق: عتبات، بيروت، الدار العربية للعلوم، ٢٠٠٨.

الجزار، محمد فكري: العنوان وسميوطيقا الاتصال الأدبي، القاهرة، الهيئة المصرية للكتاب، ١٩٩٨.

الحبشي، عبدالله محمد: الرحالة اليمنيون رحلاتهم شرقًا وغربًا، صنعاء، مكتبة الإرشاد، ١٩٨٩.
دي لنجو، أندريا: في إنشائية الفواتح النصية، ترجمة سعاد بن إدريس نبيع، جدة، مجلة نوافذ، العدد العاشر، ديسمبر ١٩٩٩.
راينولدز، دويت: ترجمة النفس، ترجمة سعيد الغانمي، أبوظبي، هيئة أبوظبي للثقافة والتراث، ٢٠٠٩.
روزنثال، فرانز: علم التاريخ عند المسلمين، ترجمة صالح العلي، بيروت، مؤسسة الرسالة، ط٢، ١٩٨٣.
سلفرمان، ج. هيو: نصيات بين الهرمنيوطيقا والتفكيكية، ترجمة حسن ناظم وعلي حاكم، بيروت، المركز الثقافي العربي، ٢٠٠٢.
شرف، عبدالعزيز: أدب السيرة الذاتية، القاهرة، الشركة المصرية العالمية للنشر، ١٩٩٢.
شعلان، عبدالوهاب: السرد العربي القديم، دمشق، مجلة الموقف الأدبي، العدد ٤١٢، ٢٠٠٥.
ضيف، شوقي: الترجمة الشخصية، القاهرة، دار المعارف، ط٤، ١٩٨٧.
عبدالغني، محمود: فن الذات، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، ٢٠٠٨.
عبيد، محمد صابر: السيرة الذاتية الشعرية، إربد، عالم الكتب الحديثة، ٢٠٠٤.
الغامدي، صالح معيض: كتابة الذات، بيروت، المركز الثقافي العربي، ٢٠١٣.
القاضي، محمد: الخبر في الأدب العربي، تونس، منشورات كلية الآداب، منوبة، ١٩٩٨.
لوجون، فيليب: السيرة الذاتية، ترجمة عمر حلي، بيروت، المركز الثقافي العربي، ١٩٩٤.
ماي، جورج: السيرة الذاتية، تعريب محمد القاضي وعبدالله صولة، أبها، نادي أبها الأدبي، ٢٠١١.
المنجد، صلاح الدين: المنتقى من دراسات المستشرقين، دار الكتاب الجديد، بيروت، ط٢، ١٩٧٦.